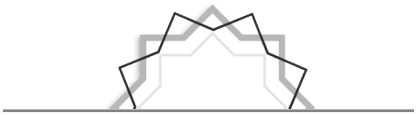

في التنمية الأسرية

ⓒ حسن موسى الصفار، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن بن موسى بن رضي
في التنمية الأسرية / حسن بن موسى بن رضي الصفار ـ القطيف، ١٤٤٢هـ
١٨٤ ص؛ ٢١,٥ × ١٤,٥سم
ردمك: ٦-٨٣٢٧-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١ـ الأسرة في الإسلام ٢ـ العلاقات الأسرية ٣ـ التربية الإسلامية
أ.العنوان
ديوي ٢١٩,١ ١٤٤٢/١١١٣٢
رقم الإيداع: ١٤٤٢/١١١٣٢
ردمك: ٦-٨٣٢٧-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢١م

أطياف للنشر والتوزيع
هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (١٣) ٩٦٦ +
القطيف - شارع القدس
ص.ب ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail: Atyaf.qatif@gmail.com

حسن بن موسى الصفار

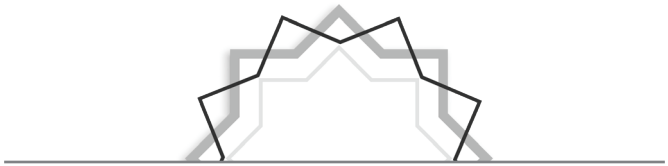

في التنمية الأسرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه ربّ العالمين. اللَّهم صلِّ على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

المحتويات

المحتويات ٥

مقدمة ٧

الفصل الأول: الأسرة وظائف وتحديات

العائلة وتحديات العصر ١٣

روافد الاستقرار النفسي ١٩

الأسرة ومواجهة الضغوط الاقتصادية ٢٩

الفصل الثاني: تأسيس الكيان

اختيار الزوج بين الفتاة وأهلها ٤١

الزواج بين التعاليم والتقاليد ٥٣

العنوسة ومسؤولية المجتمع ٦٣

الفصل الثالث: في العلاقات الأسرية

أخلاق التعامل في الأسرة والمجتمع ٧٣

الحياة العائلية ومبدأ الشراكة ٧٧

التنافس على الخدمة بين أفراد العائلة.. ..... ٨٥
لنعرف قدر زوجاتنا ٩٥
الزهراء القدوة في حياتها العائلية ١٠٣
رعاية الوالدين في الكبر ١١٣
خطر التأليب في النزاعات العائلية ١٢٥

الفصل الرابع: التربية الأخلاقية

أجواء العاطفة والحنان في الأسرة ١٣٥
الاحتشام داخل البيت.. ..... ١٤١
ابتزاز الفتيات ودور العائلة ١٤٥
العائلة مدرسة الاحترام والإكرام ١٥١

الفصل الخامس: منزلق العنف

العنف الأسري. ١٥٩
الظلم المنزلي أفحش الظلم. ١٦٧
في مواجهة العنف الأسري.. ..... ١٧٣
لغة التخاطب مع الأقربين ١٧٧

مقدمة

الأسرة هي محضن تربية الإنسان وتنشئته، وهي النبع الذي يغذي مشاعره وعواطفه، وعبر الأسرة يتعلم لغة النطق ولغة الحياة، حيث يكتسب عادات السلوك وأساليب التعامل.

وتبقى الأسرة خيمة يتفيأ الإنسان ظلالها طوال حياته، حين يكون طفلًا، ويوم يغدو شابًا، وإذا ما غزاه الشيب والكبر، ولا يستغني عن عطائها مهما حقق من تقدم ذاتي ومكانة شخصية.

لأن عطاء الأسرة يرتبط بكيانه الروحي، وبعمق وجوده العاطفي، فهي الملجأ والملاذ له في وجه الأعاصير والأزمات.

إن العيش في ظل أسرة صالحة، يمنح الإنسان اطمئنان الروح، واستقرار النفس، وثراء العاطفة، ومكارم الأخلاق.

لكن الأسرة في هذا العصر تواجه تحديات كثيرة تهدد كيانها بالاضطراب والاهتزاز، وتسلبها بعض مقومات دورها، وعناصر القوة في وجودها.

ومن أبرز تلك التحديات:

١. تضخم النزعة الذاتية الأنانية، فلا يفكر الإنسان الأناني إلا في ذاته، ولا يهتم إلا بمصالحه الخاصة، ولا يعطي من نفسه للآخرين حتى القريبين منه.

إن حب الإنسان لذاته أمر طبيعي، لكن ذلك لا يلغي النزعات الإنسانية في نفس الإنسان، كنزعة الأمومة والأبوة والمودة الزوجية وصلة الرحم والتعاطف مع الضعفاء والمحتاجين، فهذه النزعات تشكل في الحالة السويّة رافدًا من روافد حب الذات، حيث يشعر الإنسان من خلالها بالرضا والبهجة والسرور.

٢. طغيان الروح المادية حيث أصبح الإنسان يلهث خلف المال والثروة، وتحصيل المكاسب المادية، على حساب سائر الاهتمامات، فلا وقت له للجلوس مع عائلته، ولا فرصة لديه لمتابعة شؤون أبنائه، وذهنه مشغول بإدارة أعماله، ومضاعفة أرباحه.

٣. تشعّب الاهتمامات في حياة الإنسان المعاصر، بسبب انفتاح آفاق العلم، وتطور وسائل التكنولوجيا، وتقدم مستوى ثقة الفرد بذاته، واكتشافه لمواهبه وقدراته، مما جعله متنوع الاهتمامات، التي قد تستغرقه وتستنزف وقته وجهده، فيجحف بواجباته العائلية، ويقصّر في أداء الحقوق الأسرية، ويحدث ذلك غالبًا عند فقدان التوازن بين الاهتمامات المختلفة، والخطأ في ترتيب الأولويات.

٤. صعوبات الحياة ومتطلبات المعيشة التي يزداد ضغطها على الإنسان وخاصة في البلدان التي تعاني من أزمات اقتصادية واجتماعية. حيث يضطر الوالدان لمضاعفة كدحهما من أجل توفير لقمة العيش ووسائل الراحة والرفاه، وقد لا تحصل كل المتطلبات المتناسبة مع مستوى المعيشة السائدة، مما ينتج إرباكات داخل الحياة العائلية. ويؤثر على الانسجام بين الزوجين، أو بينهما وبين الأبناء.

٥. العولمة والاختراق الثقافي، فبعد أن كان كل مجتمع يعيش في إطار ثقافته وأعرافه وتقاليده، جاءت تطورات العصر لتصنع انفتاحًا غير مسبوق بين المجتمعات البشرية، فتداخلت الثقافات، واهتزت الأعراف والتقاليد في المجتمعات المحافظة، مما عمّق صراع الأجيال وتباين التوجهات، وأحدث تناقضات وصراعات ثقافية اجتماعية داخل المجتمعات، انعكست آثارها ونتائجها السلبية على تماسك العائلة، وقدرتها على استيعاب واحتواء أعضائها.

إن هذه التحديات وأمثالها هي خلفية ما نلحظه في مجتمعاتنا من زيادة المشاكل العائلية والتوترات الأسرية. ولا بد لنا في مواجهة هذه التحديات من تضافر الجهود، واستنفار الطاقات، للحدّ من الآثار السلبية لهذه التحديات على كيان الأسرة والعائلة في المجتمع.

إن تعزيز كيان الأسرة، وحمايته من التصدعات، ودعم استقرار العائلة، وتوفير الأجواء الصالحة في ظلها، يمثل برنامج وقاية للأمن

الاجتماعي، ودرءًا للكثير من الأخطار والمفاسد.

ولا يتحقق ذلك إلا بإطلاق حملات من التوعية والتثقيف لتأكيد مكانة العائلة، والتأهيل لتأسيس بنائها وإدارتها بالشكل الصحيح، ولطرح الحلول والمعالجات لما قد يواجه الأسرة من مشاكل وصعوبات.

وتحتاج مجتمعاتنا إلى مؤسسات تُعنى بالتنمية الأسرية، لتنهض بمهمة الدراسة والتخطيط، ووضع المناهج والبرامج، واقتراح الحلول والمعالجات، واستقبال حالات المشاكل الحادثة للمساعدة في احتوائها ومعالجتها.

هذا الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى قبل سنوات ونفذت نسخه، فقمت بمراجعته وتنقيحه، وأضفت إليه مقالات جديدة تتناول جوانب مختلفة في ذات السياق، أرجو أن يشكّل مساهمة مفيدة على صعيد نشر الوعي والثقافة الأسرية الهادفة..

ومن اللَّه تعالى أرجو القبول والتوفيق.

حسن بن موسى الصفار

٢٨ شعبان١٤٤٢هـ

١٠ أبريل ٢٠٢١م

الفصل الأول

الأسرة وظائف وتحديات

العائلة وتحديات العصر

تواجه العائلة في المجتمعات المعاصرة تحديات كبيرة من قبل الحضارة المادية الزاحفة، فهي آخر حصن وقلعة للمبادئ والقيم الإنسانية، بعدما حطمت النزعات المادية والتوجهات الأنانية المصلحية، كل حصون المبادئ والمثل، من النظام السياسي، إلى النظام الاجتماعي العام، إلى وسائل الإعلام، وبرامج التعليم، ومؤسسات الاقتصاد.. حيث أصبحت كل هذه الميادين ساحة للكسب المصلحي والتنافس المادي، وخدمة الذات والأنا على حساب المبادئ والقيم، ودون أي اعتبار لها أو مبالاة بها. مما صيّر الحياة غابة وحوش، وميدان صراع، لا مكان فيها للعواطف والمشاعر، ولا رعاية فيها للقيم والمبادئ.

وبقيت العائلة كحصن أخير؛ لأنها بطبيعتها تنبثق من حالة فطرية وجدانية، وتقوم على أساس إنساني، وتعتمد لغة العواطف والمشاعر، ومعادلة البذل والعطاء والتضحية، في مقابل الأنانية والمصلحية.

لقد شاءت حكمة اللَّه تعالى أن يودع قلوب الأمهات والآباء العطف والحنان على أبنائهم، بحيث يؤثرونهم على أنفسهم، ويضحّون بوجودهم

من أجلهم، ويسخّرون كل إمكاناتهم لخدمتهم وإسعادهم.

وفي المقابل يكون الأبناء ملتصقين بالوالدين، وخاصة في فترة طفولتهم التي تمتد لسنوات، متأثرين بهما، تابعين لهما، وضمن أجواء الحنان والعطف والانشداد والانجذاب، ينشأ الإنسان ويتربّى وتنمو عواطفه ومشاعره، فيستقبل الحياة كإنسان سويّ، مشبَّع العواطف، مرهف الأحاسيس، يعرف قيمة التضحية والعطاء، ويقدّر جهود الإحسان والبذل.

هكذا شاءت الحكمة الإلهية أن ينشأ الإنسان ويتربّى، ضمن أجواء العائلة والأسرة، التي لا يحتاج إليها لتنميته جسميًا وماديًا فقط، بل لإعداده نفسيًا وروحيًا كذلك.

ومن هنا تأتي أهمية الأسرة، فهي أرضية بناء إنسانية الإنسان، ومركز تنمية مشاعره وعواطفه، ومدرسة تربيته على القيم والمثل.

والحضارة المادية تعمل على (تشيّي) الإنسان، وتحويله إلى شيء من الأشياء، تحكمه معادلة المصالح والمكاسب، ويدور في طاحونة الأنانية والذاتية، غايته اللذّة، وهدفه إشباع الشهوة، وتحقيق المصلحة العاجلة، أما القيم والمبادئ والأخلاق، فهي في معادلة الحضارة المادية أساطير وخرافات وأوهام.

ولإنجاز هذا الهدف الخطير، تزحف الحضارة المادية على كل منابع القيم والأخلاق، لتجفيف روافدها، وتحطيم قنواتها، وقد وصلت حشودها الغازية إلى آخر الحصون، حصن العائلة الإنساني، لتدكّ كيانه العريق.

لذلك ترى في المجتمعات الغربية عزوفًا واضحًا تتسع رقعته يومًا بعد آخر عن الرغبة في الزواج، وتكوين العائلة، وتحمّل مسؤولية الأسرة، ولماذا يتحمل الإنسان المادي الغارق في أنانيته، اللاهث خلف شهواته، أعباء تكوين العائلة وإدارتها ورعايتها؟

إنّ ذلك يستلزم منه العطاء من ذاته، والتنكّر لأنانيته، والتضحية برغباته من أجل زوجته وأبنائه، وهو ليس مستعدًا لذلك.

ونتابع الإحصاءات والتقارير عن شيوع العلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية، وعن الأرقام القياسية لانتشار حالات الطلاق وانهيار العلاقات الأسرية.

لقد اهتزّت العلاقات الأسرية تحت وطأة ضغوط الحضارة المادية، وأنماط السلوك المادي الأناني.

وما عاد كل من الزوج والزوجة مستعدًا للتنازل عن شيء من رغباته لصالح العلاقة مع الآخر، من أجل استقرار الكيان العائلي، فالمصلحة الذاتية، والنزعة الأنانية، مستحكمة غالبة، والتحريض الخارجي إعلاميًا وثقافيًا ومعلوماتيًا في تصاعد مستمر، يدفع كلا من الزوجين إلى التخلّص من التقيّد بالآخر، والركض خلف المصالح واللذات والشهوات.

أما الأبناء فقد أصبحوا عبئًا ثقيلًا يبحث الوالدان عن فرص التخلّص منه عبر مؤسسات الحضانة والرعاية، أو بتلهيتهم بالانشداد إلى الأفلام التلفزيونية والألعاب الكمبيوترية، أو أي شيء آخر، يريح الوالدين من أعبائهم. مع الاتجاه إلى تقليل النسل وتحديده، تجنّبًا لمسؤولية التربية والرعاية.

وتتحدث كثير من التقارير عن تراجع الخصوبة ونسبة الولادات عبر العالم، فقد جاء في تقرير نشرته (بي بي سي) بتاريخ ١٥ يوليو ٢٠٢٠م (أن كل دولة تقريبًا ستسجل تقلصًا في عدد سكانها بحلول نهاية القرن. ويتوقع أن تشهد ٢٣ دولة، من بينها إسبانيا واليابان، تناقص عدد سكانها إلى النصف بحلول عام ٢١٠٠م.

وتؤدي الظاهرة أيضًا إلى تزايد معدل الشيخوخة، إذ يتوقع أن يتساوى عدد البالغين من العمر ٨٠ عامًا مع عدد المواليد الجدد.

في خمسينيات القرن الماضي كانت المرأة تنجب ما معدله ٤,٧ أطفال. لكن معدل الخصوبة في العالم تناقص إلى النصف تقريبًا، إذ سجل ٢,٤ في عام ٢٠١٧م.

وتتوقع الدراسة المنشورة في مجلة لانست الصحية أن هذا المعدل سينخفض إلى أدنى من ١,٧ بحلول ٢١٠٠م.

الأمر لا يتعلق بالقدرة الجنسية، إنما يتعلق بميل المزيد من النساء إلى الحصول على التعليم والعمل، بالإضافة إلى توفير موانع الحمل بشكل واسع، وهو ما جعل النساء يخترن إنجاب عدد أقل من الأولاد)[1].

هكذا تعيش الأسرة والكيان العائلي تحدّيًا مصيريًّا خطيرًا أمام زحف الحضارة المادية.

وفي ظل العولمة فإن مجتمعاتنا الإسلامية تواجه الخطر ذاته، وتقابل التحدي ذاته على صعيد البناء الاجتماعي ومستقبل العائلة.

(١) https://www.bbc.com/arabic/world-53417978

ولمواجهة هذا الاجتياح الزاحف، نحتاج إلى إعلان حالة طوارئ لتحصين مجتمعاتنا، وللحفاظ على النظام العائلي الأسري، الذي هو الخيار المتوفر لحماية القيم والمبادئ، ونقلها إلى أجيالنا القادمة.

وذلك يستدعي خططًا شاملة، تتضمن محاور عديدة، من أبرزها ما يلي:

١. تيسير مشروع الزواج وبناء الأسرة والتشجيع على ذلك.
٢. مساعدة ودعم الحالة الأسرية في مواجهة الضغوط الاقتصادية.
٣. إنشاء المؤسسات لمعالجة المشاكل التي تطرأ على الكيان الأسري.
٤. بث الوعي والثقافة الإنسانية والاجتماعية، لمواجهة الثقافة المادية، ونمط السلوك الغربي.

وفي تراثنا الديني والمعرفي، رصيد ثقافي كبير، يمكننا تفعيله والاستفادة منه في هذا المجال، على مستوى الأحكام والقوانين الشرعية، وعلى مستوى الآداب والسنن والأخلاق، وعلى مستوى الفكر والطروحات الثقافية.

وكنموذج من المخزون الديني المعرفي الذي ينبغي بعثه وإثارته على هذا الصعيد، هو سير الأولياء الصالحين في بُعد حياتهم العائلية، وتعاملهم الأسري.

وهو ما نستلهمه من القرآن الكريم في حديثه عن الأنبياء والأولياء، حين يستعرض جوانب من حياتهم الأسرية.

روافد الاستقرار النفسي

طبيعة الحياة تقتضي من الإنسان الحركة وبذل الجهد، في المجال الذهني والبدني والنفسي. فيبذل الإنسان جهدًا ذهنيًّا لتنظيم أمور حياته، وترتيب شؤونه، ومواجهة المشاكل التي تعترضه. كما يبذل جهدًا بدنيًّا من أجل توفير لقمة العيش، ومتطلبات الحياة. ويتحمّل أعباء نفسية بسبب ما يواجهه من عوائق وما يطرأ على علاقاته الاجتماعية من مشاكل، لذلك يحتاج الإنسان إلى محطّات للهدوء والراحة، من أجل أن يكون قادرًا على مواصلة الجهد. وقد هيّأ الله للإنسان أسباب ووسائل الراحة والاستقرار، التي يتحدّث عنها القرآن الكريم في أبعاد: الزمان، والمكان، والشراكة الإنسانية.

أولًا: بعد المكان

وهو المسكن الذي يأوي الإنسان إليه، ويشكّل أهم وسائل الاستقرار؛ لأنه يقي الإنسان من تقلّبات الجو كالحرّ والبرد والمطر والريح، كما يحميه من الهوام والوحوش، إضافة إلى أنه يتيح له ممارسة

خصوصيته الكاملة، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾، أي محطّة للراحة والاستقرار.

ثانيًا: بعد الزمان

جعل الله تعالى للإنسان مقطعًا من الزمن مناسبًا للراحة والسكون. وهو الليل، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾. فحينما يرخي الظلام سدوله على الحياة، فإنه يوفّر للناس أجواء الهدوء والسكون.

ثالثا: بعد الشراكة الإنسانية

وأهمّ شراكة يحتاجها الإنسان هو العلاقة الزوجية، التي من خلالها تكون له أسرة تصبح مصدرًا لاستقراره النفسي والاجتماعي، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

هذه الأبعاد الثلاثة؛ البيت والليل والعائلة، تشكّل منابع للاستقرار النفسي، والراحة الذهنية، والبدنية، شرط أن يحسن الإنسان الاستفادة منها، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾. أي إنّهم لا يحسنون الاستفادة من هذه الوسائل في تحصيل الراحة والاستقرار لأنفسهم.

كيف لهذه الأبعاد أن توفر الراحة والاستقرار في حياة الإنسان؟

البيت: أجواء التربية والسعادة

إن مجرّد وجود جدران وأثاث للبيت، لا يعني أن أسباب الراحة قد توفرت فيه. إنما يوفر البيت الراحة إذا توفرت فيه الأجواء المناسبة، حينما يكون مكانًا للتربية، ومنبعًا للدفء العاطفي. فالإنسان بحاجة الى ما يشبع أحاسيسه ومشاعره، وحتى يتم ذلك لا بُدّ من تواجد أفراد العائلة مجتمعين في البيت أكثر قدر ممكن من الوقت. فالبيت ليس فندقًا للنوم، ولا مطعمًا للأكل. إنما هو إطار وعش يجتمع فيه أفراد العائلة. واجتماعهم لا يعني مجرّد التلاقي بالأجسام، وإنما تواصل المشاعر والأحاسيس، فقد يجتمعون بأجسامهم لكن مع انشغال كلّ واحد بنفسه، كما يُعبّر القرآن الكريم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾، سيما مع وسائل الاتصالات الحديثة، حيث تجد كلّ فردٍ من العائلة مقبلًا على شاشة هاتفه النقّال، حتى وهو جالس على طاولة الطعام.

وفي بعض الأحيان يكاد يكون وقت الالتقاء العائلي معدومًا، فالأب لطبيعة عمله لا يتواجد كثيرًا في البيت، وإذا عاد من عمله جلس مع رفقائه، والأم مشغولة بأمور البيت أو الوظيفة، والأولاد بمذاكرة دروسهم، أو مشاهدة التلفزيون، أو الجلوس مع أصحابهم، وهذا خطأ كبير.

على الوالدين أن يحرصا على تخصيص أوقات لاجتماع أفراد العائلة، يتحدثون مع بعضهم، ويتلقى الأولاد التوجيه والعناية من الوالدين، فذلك له أهميته الكبرى.

ولا بُدّ من توفير أجواء السعادة، والبعد عن الخلاف والشجار سيما بين الوالدين، فذلك يؤثر على نفسيات الأولاد، ويدعوهم لهجر منازلهم.

الليل وقت الراحة والاجتماع

جعل الله الليل سكنًا، لذلك ينبغي للإنسان أن يكون في بيته ليلًا مع عائلته؛ لأنّ السهر خارج البيت خاصة من قبل الزوج أو الزوجة، أمرٌ سيّئ يؤثر على العلاقات الأسرية والتربوية. لقد تورّط مجتمعنا في بعض العادات السيئة المؤثرة سلبًا على الاستقرار العائلي، ومنها عادة التأخير في حفلات الأعراس النسائية إلى ما بعد منتصف الليل وقرب الفجر! وكذلك سهرات بعض الرجال في المزارع والديوانيات إلى وقت متأخّر من الليل، على حساب زوجاتهم وأبنائهم!!

عادة السهر من أسوأ الحالات في مجتمعاتنا، ولها آثار سلبية. منها ضعف الإنتاجية حيث يذهب الطالب إلى المدرسة، والموظف إلى العمل، وهو يعاني من النعاس والتعب، بل تشير التقارير أن من أسباب كثرة الحوادث المرورية في الصباح تأثير السهر، وعدم كفاية الجسم من الراحة والنوم.

في الدول المتقدمة يقفلون أسواقهم في الساعة الخامسة مساء، وتبقى بعض المحلات حتى العاشرة ليلًا، عدا المحلات الضرورية. وأغلب الناس يكونون في منازلهم ليلاً!

العائلة ودفء العلاقة

إذا كوّن الإنسان عائلة، فعليه أن يحميها بعلاقات المودة والحبّ المتبادل بين أفرادها؛ لأن ذلك يحصّن الجميع من الانحراف، وينمّي عندهم الأخلاق الفاضلة. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن المرء يحتاج

في منزله وعياله إلى ثلاث خلال يتكلفها وإن لم يكن في طبعه ذلك: معاشرة جميلة. وسعة بتقدير. وغيرة بتحصن»[1]. أي إنّ الغيرة لا تكون بالرقابة، بل بالتحصين وهو الإشباع العاطفي.

ينبغي أن يفكر الآباء في توفير ما يضفي البهجة والراحة النفسية ويسر قلوب أفراد العائلة، وأن يعلم الآباء أن توفير الطاقة العاطفية في العائلة، يضاهي في أهميته توفير الطاقة الكهربائية وسائر الخدمات الأخرى في المنزل. ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بأهلِ بيت خيرًا أدخل عليهم بابًا من الرفق»[2]، ومعنى ذلك أن يكون جميع أفراد العائلة رفقًاء ببعضهم، يظهرون المحبة لبعضهم بعضًا، ويدخلون البهجة على قلوب بعضهم بعضًا.

إنّ من المؤسف أن يتحول المنزل أحيانًا إلى عامل إزعاج في حياة الأفراد، فينصرفون إلى البحث عن الراحة خارجه. وذلك نتيجة اضطراب العلاقة بين أفراد العائلة، فلا يعود الفرد يشعر بالراحة في المنزل، بل الأنكأ عندما لا يذوق الفرد طعم الراحة إلا خارج البيت!. عندما يفتش الرجل عن الراحة مع أصدقائه، أو المرأة مع رفيقاتها، والحال نفسه مع الأبناء، فإنه مؤشّر على وجود خلل في شبكة العلاقة داخل الأسرة، حيث انعدمت هنالك الراحة النفسية، وتلاشى الإغداق العاطفي بين أفراد العائلة.

(١) الحسن بن علي بن شعبة الحراني. تحف العقول، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ، (بيروت: مؤسسةالأعلمي)، ص٣٢٢.

(٢) علاء الدين علي المتقي الهندي، كنز العمال،ج٣، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٥٣، حديث ٥٤٥٦.

الأجواء الروحية في المنزل

إن الآباء مطالبون بإشباع الجانب الروحي في المنزل. وهنالك نصوص دينية عديدة تؤكّد هذا الجانب، ومن ذلك ما ورد عن استحباب أن يتخذ المرء لنفسه في منزله مصلى يؤدي فيه الصلاة النافلة ـ على اعتبار أفضلية الصلاة الواجبة في المسجد ـ ليتسالم جميع أفراد العائلة على اعتبار تلك الزاوية من المنزل مصلّى ومكانًا للعبادة، وليكون عندها ذلك المصلى جزءًا أساسيًّا من تصميم المنزل، فذلك ما يترك خلفه أثرًا تربويًّا روحيًّا على الجميع. ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «كان عليّ قد اتخذ بيتًا في داره، ليس بالكبير ولا بالصغير، فكان إذا أراد أن يصلي من آخر الليل، يذهب إلى ذلك البيت فيصلي»[1]، وقد كتب الإمام الصادق عليه السلام إلى أحد أصحابه: «إني أحبّ لك أن تتخذ في دارك مسجدًا في بعض بيوتك»[2].

وقد وردت تعاليم دينية كثيرة حول أهمية ذكر الله تعالى في المنزل. إنّ من الخطأ الاعتقاد بأن مكان العبادة هو المسجد فقط، وأن المنزل مجرّد مكان مخصص للأكل والنوم!، والصحيح أن ربّ العائلة مطالب بتوفير أجواء الذكر في منزله لينعم الجميع بالأجواء التي فيها ذكر الله تعالى. وجاء في هذا الصدد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مثل البيت الذي يذكر

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٥، الطبعة الأولى١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث)، ص٢٩٥.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. ج ٨١، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص٢٤٤، حديث ٣٢.

الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحيّ والميت»[1]، وتلك مقارنة نبوية لافتة، بأن يفرق بين البيت الذي يذكر فيه اسم الله والآخر الذي لا يذكر فيه اسمه تعالى بالفرق بين الموت والحياة!. ويجري الحال نفسه مع تلاوة القرآن الكريم في المنزل، فما أروع أن يكون للأبوين برنامج لقراءة القرآن الكريم في المنزل، على مسمع من أفراد العائلة، فيتعود الجميع ذلك، حتى تصبح تلاوة القرآن جزءًا من حياتهم. وقد لفت نظري عند سؤال بعض الأصدقاء عن تلاوتهم القرآن الكريم في منازلهم، ليظهر أنهم لم يعتادوا على ذلك، وإنما يكتفون بتلاوة القرآن في المسجد باستثناء التلاوة في شهر رمضان المبارك. والحال أن المرء مدعو لأن يضع لنفسه برنامجًا يوميًّا، لتلاوة القرآن على مسمع ومرأى من أفراد أسرته. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «نوّروا بيوتكم بتلاوة القرآن (...)، فإن البيت إذا كثرت فيه تلاوة القرآن كثر خيره واتّسع أهله وأضاء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الدنيا»[2]، وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله فيه، تقلّ بركته، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين»[3].

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (الرياض: دار المغني)، ص٣٩٣، حديث ٢١١.
(٢) وسائل الشيعة، ج٦، ص٢٠٠، حديث ٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٩٠، ص١٦١.

التأهيل الاجتماعي

أما الجانب الأخير فهو أن يصبح المنزل مكانًا للتأهيل الاجتماعي لأفراد العائلة. وذلك بأن يتعلم الأبناء أفضل السبل في التعامل مع محيطهم الاجتماعي، فلا تكون الأسرة منعزلة عن الناس، وإنما تكون السمة الأساس لدى أفراد العائلة هي التواصل الاجتماعي مع الأقرباء والأرحام والجيران وسائر أبناء المجتمع. إنّ انعدام التداخل مع الناس لا يساهم في تنمية الحسّ الاجتماعي لدى أفراد العائلة. من هنا نفهم الوصايا الدينية التي تشدّد على استقبال الضيوف في المنزل، من الجيران والأقرباء وسائر أبناء المجتمع، ذلك ليتعزز الحسّ الاجتماعي عند أفراد الأسرة ويكون في أحسن حالاته. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الضيف ينزل برزقه ويرتحل بذنوب أهل البيت»[1]، وقد كان معروفًا في السابق أن الضيف يقيم في منزل مضيفيه ليوم أو اثنين أو ثلاثة، وذلك لطبيعة الظروف في ذلك الوقت مع انعدام الفنادق، على خلاف ما هو قائم اليوم، حيث بات الضيف يأتي لوقت قصير جدًّا ويغادر سريعًا. وجاء عنه ﷺ أنه قال: «كلّ بيت لا يدخل فيه ضيف لا تدخله الملائكة»[2]، ذلك أنّ مجيء الضيوف إلى المنزل، يعود بتأثير كبير على سائر أفراد الأسرة. وروي في السياق أن أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام رؤي ذات يوم حزينًا، فقيل له: مِمَّ حزنك؟ قال عليه السلام: «لسبع أتت لم يضف إلينا ضيف»[3]. أي إنّ مجرد

(١) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، ج٢، الطبعة السابعة ١٤٠٧هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص١١٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) بحار الأنوار، ج٤١، ص٢٨.

انقطاع الضيوف عن المجيء لأسبوع واحد لمنزله كان مدعاة لحزنه عليه السلام. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من آتاه الله مالًا فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة»[1].

من هنا ينبغي أن نجعل من منازلنا مأوى للعاطفة، وتربية الأحاسيس والمشاعر الخيّرة، إضافة إلى تعزيز حسّ التواصل الاجتماعي بين أفراد العائلة وبينها وبين المجتمع. فهذه الأمور بمجملها هي التي تساعد في بثّ الحياة في المنزل والنأي به عن أن يكون مجرّد مساحة للراحة الجسمية وحسب.

فلتقرر كلّ عائلة أن تنظم أوقاتها وأمورها، وتوفّر أجواء الراحة والاستقرار لجميع أفرادها، لنصنع أجواء النجاح والتفوق لأبنائنا وبناتنا في مسيرتهم التعليمية، ونشأتهم التربوية.

(١) نهج البلاغة، خطبة١٤٢.

الأسرة ومواجهة الضغوط الاقتصادية

لا شك أنّ استقرار الأسرة وانسجامها الداخلي عامل أساس في تحقيق السعادة، فالإنسان الذي يعيش ضمن أسرة مستقرة منسجمة يكون أقرب إلى السعادة، حيث تتوفر له أجواء السكينة والاطمئنان والإشباع العاطفي، فيكون أقدر على الإنتاج والتفاعل مع الحياة، أما إذا كان يعيش في أسرة مضطربة، تعصف بها المشاكل والتوترات الداخلية، فسيكون ذلك مبعثًا للقلق وحصول مختلف الأمراض والعقد النفسية، مما يؤثر على سلوك الإنسان وإنتاجه وتعامله مع الحياة، وكذلك يجري الأمر على الصعيد الاجتماعي، فإنّ الاستقرار الأسري يُحصّن الأمن الاجتماعي؛ لأنّ الاضطراب والتفكك الأسري قد يدفع أفراد الأسرة إلى مهاوي الانحراف والإجرام والفساد.

وتشير الإحصاءات والتقارير إلى أنّ نسبة كبيرة من المتورطين في الجرائم والانحرافات الأخلاقية، ينتمون إلى أسرٍ تعاني من التفكك والاضطراب، فلا تقدّم لأفرادها الرعاية والتربية.

أثر اليسر المالي

من العوامل الأساس في تحقيق الاستقرار الأسري اليسر المالي، بحيث تتوفر مستلزمات الحياة لأفراد الأسرة ضمن العرف والظرف السائد في المجتمع، وعلى العكس من ذلك إذا كانت الأسرة تعاني ضغوطًا اقتصادية، فإنها تسبّب توترات واضطرابات داخل الأسرة، فالزوجة التي لا يوفّر لها الزوج متطلبات الحياة، لا ترى نفسها تعيش في مستوى قريناتها، وقد تتأثر بهذه الحالة سلبًا، وكذلك الأبناء الذين لا تتوفر لهم النفقات ومستلزمات المعيشة مثل أقرانهم، لن يكون وضعهم العائلي وعلاقتهم مع أسرهم علاقة مستقرة.

إنّ نسبة كبيرة من المشاكل العائلية التي تؤدي إلى انهيار الأسرة، هي بسبب العامل الاقتصادي، كما أنّ الحاجة المالية قد تدفع بعض أفراد الأسرة إلى الانحراف والإجرام، بحثًا عن المال وتوفير مستلزمات الحياة، لذلك أوجب الله تعالى على الإنسان أن يتحمل مسؤولية الإنفاق على أسرته، حيث يذكر الفقهاء وجوب الإنفاق على الزوجة والأولاد والوالدين، وتأمين مستلزمات الحياة وفق المتعارف في بيئتهم ومجتمعهم، كما يجب السعي للاكتساب من أجل توفير نفقات الأسرة، فلا يصح للإنسان أن يقتّر على عائلته ما دام قادرًا على الكسب.

لماذا تعيش عائلتك في ضغط اقتصادي؟!

لماذا لا تتوفر مستلزمات الحياة لعائلتك؟!

إذا كان دخلك الشهري محدودًا عليك أن تبحث عن عمل إضافي.

البعض يصيبه الكسل فيكتفي بعمل محدود!!

نحن نرى أنّ الناس في البلدان الأخرى يكدحون، يعمل الواحد منهم في أكثر من عمل حتى يوفر موارد مالية كافية لأسرته، وهذا هو الصحيح، فما دام الإنسان قادرًا على العمل، لماذا تعيش عائلته ضمن وضع محدود ؟!

توفير الحياة الكريمة للأسرة

عليك أن تتعب من أجل توفير حياة كريمة لأسرتك، ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «أَرْضَاكُمْ عِنْدَ اللهِ أَسْبَغُكُمْ عَلَى عِيَالِهِ»[1]، رضا الله تعالى لا يقتصر على الأمور العبادية!

وكلما استطعت أن توسّع على عيالك فأنت أقرب إلى رضا الله سبحانه.

وورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «صاحِبُ النِّعمَةِ يَجِبُ عَلَيهِ التَّوسِعَةُ عَلى عِيالِهِ»[2].

أحد المفسّرين تأمل في الآية الكريمة ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي ما دام عنده مال عليه أن ينفق ولا يقتر على عياله، ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي إذا كان محدود الدخل﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾ أي مما آتاه الله من قوة، وهذا يعني أن

(١) محمد بن يعقوب الكليني، فروع الكافي، ج٤، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص١١، حديث١.
(٢) المصدر نفسه، حديث ٥.

يجتهد ويكدح، فلا يكتفي بدخل محدود.

وورد عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ تَعالى يُحِبُّ أن يَرى عَبدَهُ تَعِبًا في طَلَبِ الحَلالِ»[1].

قد يقول بعض من الناس: لماذا أتعب نفسي؟!

الله يريدك أن تتعب نفسك في طلب الحلال، فقد ورد عنه ﷺ: «الكادُّ عَلى عِيالِهِ مِن حَلالٍ كَالمُجاهِدِ في سَبيلِ اللهِ»[2].

إذا توفر لديك الوقت والقدرة، عليك أن تعمل وتجتهد، فلا تدع الوقت يمضي فيما لا ينفع، روي عن الإمام الصادق أنه رأى أحد أصحابه جالسًا عنده في المجلس، فسأله: «يَا مُعَاذُ، أَضَعُفْتَ عَنِ التِّجَارَةِ، أَوْ زَهِدْتَ فِيهَا؟ ».

قال: مَا ضَعُفْتُ عَنْهَا، وَلَا زَهِدْتُ فِيهَا.

قَالَ عليه السلام: «فَمَا لَكَ؟».

قال: عِنْدِي مَالٌ كَثِيرٌ وَهُوَ فِي يَدِي، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيَّ شَيْءٌ، وَلَا أَرَانِي آكُلُهُ حَتّى أَمُوتَ.

فَقَالَ عليه السلام: «لَا تَتْرُكْهَا؛ فَإِنَّ تَرْكَهَا مَذْهَبَةٌ لِلْعَقْلِ»[3]، وفي رواية أخرى أنه عليه السلام قال له: «اُغْدُ إلى عِزِّكَ»[4]، يعني التجارة.

---

(١) كنز العمّال، حديث: ٩٢٠٠.
(٢) الكافي، ج٥ ، ص ٨٨ ، حديث ١ .
(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص ١٤٩، حديث٦.
(٤) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٣، حديث٢.

فالإمام يرجح العمل والكدح على الجلوس في مجلسه.

ومع الظروف الاقتصادية الجديدة، لا بُدّ وأن نحذر من انعكاساتها على استقرار الأسر، فقد تكون لها ارتدادات تظهر مع مرور الوقت على أوضاع الأسر، حين لا يجتهد الإنسان في توفير المزيد من الدخل.

نلاحظ أنّ أسعار السلع ترتفع، والامتيازات في الوظائف تقلّ، وهذا يعني ضرورة التعامل بحكمة وجد، وذلك عبر:

- البحث عن دخل إضافي.
- تطوير إدارة الأسرة للشأن الاقتصادي.
- رسم الخطط الاقتصادية لنفقات ومصروفات الأسرة.

ثقافة حسن التدبير

وبصورة عامة يحتاج الناس إلى ثقافة حسن التدبير، وإعادة النظر في طريقة الصرف والإنفاق والاهتمام بالأولويات.

نلاحظ أنّ الناس ما زالوا على الطريقة المعتادة المألوفة، لم يغيّروا من عادات الصرف والمشتريات!!

حينما تحصل الأزمات المالية والصعوبات الاقتصادية لا بُدّ من وجود فهم وتفاهم داخل الأسرة، بأن يجلس ربّ الأسرة مع عائلته، ويتحدث لهم عن ضرورة حسن التعامل مع المستجدات الاقتصادية، والجميع مهيأ لمثل هذا الحديث، فالأخبار تصلهم عبر مختلف الوسائل، والمطلوب هو تحويل هذه المعلومات إلى رؤية وسلوك، حتى لا تحصل ارتدادات سلبية.

إذا لم تتفهم الزوجة ظروف زوجها، ومارست الضغوط عليه، كي تعيش كما كانت في الماضي، من الصرف على الكماليات والهدايا والسفر والتسوق، فإنّ ذلك يشكل أرضية لخلق المشاكل، وقد يدخل زوجها في مأزق نفسي حرج، خصوصًا إذا كان لديه شعور إنساني مرهف.

لاجئ يضرم النار في جسمه

تحدثت وكالات الأنباء عن لاجئ سوري عمره ٤٣ سنة، في طرابلس شمال لبنان، لديه أربعة أطفال، أضرم النار في جسمه، أمام مركز تابع للأمم المتحدة، وذلك على أثر تقليص وكالة غوث اللاجئين مساعداتها، فقد قطعت المساعدات عن عشرين ألف عائلة، وقد أصيب بحروق بلغت ٣٥ في المئة من جسمه[١]!!

الأسر المنتجة

في مواجهة الظروف الاقتصادية المستجدة برزت الحاجة إلى تشجيع ودعم فكرة (الأسر المنتجة) التي يسعى كلّ أفرادها للمشاركة في الإنتاج وتوفير دخل إضافي.

هناك أسر منتجة تعمل وتسوّق البضائع في مختلف المجالات، سواء الملابس وما يرتبط بالخياطة، أو إعداد الطعام والحلويات، أو مجال الأعمال الإلكترونية، لقد أصبح العمل من البيت فرصة مناسبة لزيادة الدخل، ينبغي أن نشجع عوائلنا عليه.

(١) صحيفة الشرق الأوسط، الصادرة يوم الخميس ٢٤ شهر ربيع الثاني ١٤٣٩هـ الموافق ١١ يناير ٢٠١٨ م، العدد [١٤٢٨٩].

مشاركة المرأة الموظفة

هناك نساء موظفات لهنّ دخل شهري، يمكنهن المشاركة في الصرف على شؤون المنزل، وهي مشاركة مستحبة غير واجبة، لكنها ستسهم في تخفيف الأعباء عن ربّ الأسرة، وتوفر أسباب الراحة والسعادة لأبنائها وزوجها، وفي ذلك مصلحة للجميع، بالطبع ليس للزوج حق التصرف في مال زوجته إلّا بإذنها، لكن بعض النساء لا ترى نفسها معنية بالمشاركة، وتصرف مالها على الكماليات والأمور الثانوية!!

على الزوجة أن تعتبر نفسها شريكة مع الزوج في تحمل المسؤولية، ما دامت قادرة على الإنتاج وتوفير الدخل.

دور أثرياء المجتمع

التجار والأثرياء، ورجال الأعمال، عليهم أن يقفوا مع محدودي الدخل في مجتمعهم، من يتمكن من التخفيف عن الناس، ويقلل مقدار الربح في تجارته مساعدةً لمجتمعه فلن يخسر، وهذا التاجر الذي يقول (خلّي الضريبة علينا) أي ضريبة القيمة المُضافة لا يخسر، بل يربح ويتوسع في تجارته، وسيكون الإقبال عليه أكثر، كما أنّ الله تعالى يبارك له ويوسّع عليه، ما دام يعمل للتوسعة على الناس.

والمؤسف أنّ بعض أصحاب العقار يستغلّ ارتفاع الأسعار، ويطالب المستأجرين بزيادة الإيجارات!!

في الوقت الذي يتوقع الناس منه أن يقف مع محدودي الدخل في مجتمعه ويخفّف الأعباء عنهم.

مبادرة سامح تؤجر

هناك مبادرة إنسانية جميلة تتحدث عنها الأخبار في غزّة بفلسطين، أطلق عليها (سامح تؤجر) تدعو إلى تخفيض الإيجارات، وقد أعلنت مجموعة من التجار وأصحاب المحلات إسقاط الديون عن كلّ المطلوبين بديون من قبلهم.

أعرف أحد المؤمنين من التجار كان لديه محل للأجهزة الكهربائية المنزلية، في إحدى السنوات شطب كلّ الديون المسجلة على الناس المديونين له بمبالغ عن مشترياتهم من متجره، ومثل هذا العمل لا يقلّ ثوابًا عن بناء المساجد والحسينيات أو الذهاب إلى الحج والزيارة، ورد في حديث عن رسول الله ﷺ: «خَصْلَتَانِ لَيسَ فَوْقَهُمَا مِنَ الْبِرِّ شَيءٌ: الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالنَّفْعُ لِعِبَادِ اللَّهِ»[1]، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ أخيهِ المؤمِنِ كُربَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنهُ سَبعينَ كُربَةً مِن كُرَبِ الآخِرَةِ»[2].

ففي نفع الناس ثواب عظيم، إضافة إلى النتائج الفعلية التي يجدها الإنسان في حياته، حيث يدفع الله عنه البلاء والأسواء والمكاره.

من موارد الصدقة

يعيش البعض حالة من التشدد في دفع الصدقة، ويظنّ أنّ مستحق الصدقة هو ذلك الفقير المدقع الجائع فقط!!

(١) تحف العقول، ص ٣٥.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣١٢، حديث٦٩.

بينما النظرة الدينية أشمل وأرقى من ذلك، فهي تراعي الحالة الاجتماعية العامة، كي يعيش الإنسان في مستوى أبناء زمانه ومجتمعه، فحتى لو كان الإنسان يعمل وله مصدر دخل، لكنه لا يتمكن من توفير احتياجات عائلته، فهو مستحق للدعم والمساعدة.

فعلى العاملين في مجال الجمعيات الخيرية، أو من بيدهم حقوق شرعية، أن يعيدوا النظر في التعامل مع الحالات التي تُعرض عليهم.

نحن نقرأ في سيرة أئمتنا أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، ونسمعها كفضائل يذكرها الخطباء، فالإمام يأتيه السائل فيقول أعطوه سبعين ألفًا .. خمسين ألفًا .. ثلاثين ألفاً!!

وذلك من أجل أن يرفع مستوى السائل إلى الحالة العامة التي يعيشها أبناء المجتمع، ولا يرى نفسه أقلّ من الآخرين.

الفصل الثاني

تأسيس الكيان

اختيار الزوج بين الفتاة وأهلها

كلما كان القرار الذي يريد الإنسان اتخاذه أكثر تأثيرًا في حياته، كان في حاجة أكثر إلى الدراسة والتأني قبل اتخاذه، حتى يتجنب الانعكاسات الخطيرة للخطأ في ذلك، أما إذا كان القرار يتعلق بشيء بسيط، فقد لا يكلف نفسه عناء المزيد من التفكير فيه.

ولعل من أهم القرارات التي يتخذها الإنسان، هو قرار اختيار شريك الحياة، لتأسيس حياته العائلية الاجتماعية، لما لذلك من التأثير الواسع المدى على مستقبله، ولما للحياة الزوجية من أهمية وخطورة، تلامس جميع جوانب شخصية الإنسان.

فإذا توفق في الاختيار، ورزقه اللَّه زوجًا صالحًا، عاش السعادة والهناء، أما إذا ابتلي بزوج سيئ، فسيعاني نكد العيش ومرارة الحياة، لذا يتوجه المؤمن إلى اللَّه تعالى بالدعاء ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[سورة الفرقان، الآية: ٧٤].

وعند التفكير في اختيار الشريك يحتاج الإنسان إلى سلامة ووضوح

مقاييس الاختيار، فعلى أي أساس يختار؟ وما هي المواصفات التي ينشد توفرها في الطرف الآخر؟

والتعاليم الإسلامية ترشد الإنسان إلى المقاييس الصحيحة، التي يجب أن يضعها نصب عينيه عند الاختيار، وقد نحتاج إلى بحث خاص لتناولها والحديث عنها.

وما نريد التركيز عليه في هذا الموضوع، هو قرار الفتاة في اختيار شريك حياتها، فالأمر بالنسبة لها أشدُّ خطورة من الرجل، ذلك لأن فرصة الرجل في معالجة الخطأ في هذا القرار، أكبر بكثير من فرصة المرأة، فالمبادرة بيده من الناحية الشرعية، وبإمكانه فك العلاقة والارتباط إذا ما أراد، أما المرأة فلا تملك هذا الحق شرعًا، إلا ضمن استثناءات محددة.

من ناحية أخرى فإن الظروف الاجتماعية تتيح للرجل اختيار شريك جديد عند فشل تجربة زواجه، بسهولة أكبر من المجال المتاح للمرأة عند فشل تجربتها الزوجية.

من هنا تحتاج الفتاة أكثر إلى التفكير السليم عند الاختيار، ومشكلة الكثير من الفتيات، أنهن يقعن تحت تأثير العامل الغريزي العاطفي بدرجة كبيرة، إذ تتأثر الفتاة غالبًا بما تسمعه من كلمات غزل وحب، وتنخدع ببعض المظاهر والحركات الشبابية، وحيث ترى نفسها تعيش دورًا هامشيًا في بيت أهلها، قد تندفع مع أقرب فرصة لبناء كيانها الاجتماعي المستقل.

بالطبع لا يمكن التعميم، فهناك من الفتيات من يمتلكن النضج والرشد، ويتعالين على هذه المؤثرات.

وحماية لمستقبل الفتاة، ولترشيد قرار اختيارها، جعل الإسلام لولي أمرها دورًا في هذا القرار، على رأي قسم من الفقهاء، ويتضح ذلك في النقاط التالية :

المرأة الثيِّب

إذا مرّت المرأة بتجربة زواج سابق، وانفصلت عن زوجها بعد دخوله بها، أو توفي عنها، يُطلق عليها أنها (ثيّب) فتكون مالكة لأمرها في اختيار زوج جديد، ولا يملك أحد من أهلها حق الاعتراض والمنع، هذا في رأي فقهاء الشيعة والأحناف.

فهي ليست جديدة على الحياة الزوجية، ويفترض أنها استفادت من تجربتها السابقة، فيكون قرارها نابعًا من نضج وخبرة، وليس اندفاعًا عاطفيًا طائشًا.

ولا يشمل هذا من انفصلت عن زوجها أو توفي عنها قبل الدخول، لأن مجرد عقد الزواج لا يجعلها ثيبًا في الاعتبار الشرعي.

وإذا كان الإسلام ـ وفق هذا الرأي ـ لم يعط لأحد من أهلها حق منعها من اتخاذ القرار، فهذا لا يعني أن تزهد في استشارتهم، والاستفادة من رأيهم، لذا قال الفقهاء إنه ينبغي للمرأة المالكة أمرها، أن تستأذن أباها أو جدها، وإن لم يكونا موجودين فأخاها وإن تعدد الأخ اختارت الأكبر[1]. لكن ذلك على نحو الاستحباب لا الوجوب.

(١) السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، العروة الوثقى، أولياء العقد، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، المسألة رقم١٤.

الفتاة البكر

أما الفتاة البكر، التي لم يسبق لها أن دخلت تجربة حياة زوجية، فهناك رأيان بارزان لفقهاء الإسلام في قرار اختيارها الزوج.

الرأي الأول: أنها تمتلك كامل قرار الاختيار، ولا تحتاج إلى إذن من أبيها أو جدها أو أي أحد، وبهذا الرأي قال جمع من فقهاء الشيعة السابقين، ومن المعاصرين أيضًا، ويذهب إلى هذا الرأي من أئمة أهل السنة أبو حنيفة وأبو يوسف.

الرأي الثاني: يشترط إذن ولي الفتاة وهو رأي أكثر فقهاء الشيعة المعاصرين، على نحو الفتوى أو الاحتياط الوجوبي، وهو رأي جمهور أهل السنة.

وولي الفتاة الذي يؤخذ رأيه في الفقه الجعفري هو الأب أو الجد للأب فقط، حيث يكفي موافقة أحدهما، ولا ولاية لغيرهما على الفتاة البالغة الرشيد.

بينما تتسع دائرة الولاية في هذا المجال عند أهل السنة لتشمل العصبات للمرأة: الأبوة ثم البنوة ثم الأخوة ثم العمومة على خلاف بينهم في ترتيب الأولياء.

حكمة إذن الولي

تقدمت الإشارة إلى أن اشتراط الشارع إذن الولي في إمضاء زواج الفتاة البكر طبقًا لبعض الآراء الفقهية، هو من أجل ترشيد قرارها، حتى لا

يكون اختيارها نابعًا من حالة عاطفيـة، دون التأكد من صلاحيـة من تريد الاقتران به.

وخاصة في المجتمعات المحافظة، فإن الفتاة ليست منفتحة على مجتمع الرجال، لتعرف سلوك الخاطب لها، ومستواه ودرجة صلاحيته، وأبوها أو جدها يفترض فيهما الحرص على مصلحتها، ورغبتهما في سعادتها، لذا كان لرأيهما دخل في إمضاء زواجها.

أما غيرهما فليس له حق المنع، حسب الفقه الجعفري، نعم يستحب للفتاة أن تستشير من تثق به من أهلها، لكن ليس لأحد منهم حق المنع.

وما يمارسه بعض الأقرباء من التدخل في شأن زواج أخته، أو ابنة أخيه، أو ابنة أخته، أو ابنة عمه، أو ما أشبه، بالعرقلة والتعويق، هو تدخل فضولي لا يقره الشرع، يقول الفقيه السيد محمد سعيد الحكيم:

«ليس لأحد من الأرحام مع فقد الأب والجد للأب الولاية على البالغة البكر فضلًا عن غيرها، بل تستقل فيه بنفسها، وما قامت عليه بعض الأعراف من تدخل الأرحام ومنعهم للمرأة عما تريد، أو عما يريده لها وليها مع وجوده، ظلم صارخ، وخروج عن الموازين الشرعية وانتهاك لحدود اللَّه تعالى، وتجاهل لأحكامه في عباده، وهو من أسباب الفساد المهمة، التي قد يترتب عليها ردود فعل لا تحمد عقباها، يتحمل المفسد عارها وشنارها في الدنيا، وتبعتها ومسؤوليتها في الآخرة، ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾[1]».

(١) السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم، الأحكام الفقهية، عقد النكاح وأولياء العقد، الطبعة الثالثة ١٩٩٧م، (بيروت: دار الصفوة) ص٣٥٦، المسألة رقم٩.

سوء استخدام الحق

لكن بعض الآباء قد يسيء استخدام هذا الحق، فيعترض على اختيار ابنته دون مبرر، ويمنعها من الزواج مع أن المتقدم لها كفء صالح، مما يسبب تأخير زواجها لفترة طويلة، وقد تصبح في عداد العانسات، وقد يكون السبب لذلك تمسك الأب ببعض المقاييس المادية والمصلحية، التي يريد توفرها في خاطب ابنته، كأن يكون ثريًا، أو في مستوى وظيفي معين، أو لأن الأب يريد زواج ابنته من شخص معين، من أقربائه أو أصدقائه، أو لأن بين الأب وأم الفتاة مشكلة، كأن تكون مطلقة منه، أو معلقة، فيصّفي خلافه معها على حساب ابنته، وبعض الآباء قد يعوّق ويؤخر زواج ابنته الموظفة طمعًا في دخلها، وذلك باختلاق الأعذار والمبررات تجاه الخاطبين.

إن مثل هذه الحالات قد تحدث، لكن ما ينبغي الالتفات إليه، هو أن الإسلام يسلب هذا الحق من الولي الذي يسيء استخدامه، فإنما يحق له المنع والاعتراض، إذا كان الخاطب غير كفء، وغير صالح، أما إذا كان كفوًا مناسبًا، ومع ذلك اعترض الأب فإن حقه في الاعتراض، وولايته على الفتاة تسقط هنا. يقول الفقهاء: «إذا عضلها الولي أي منعها من التزويج بالكفء مع ميلها سقط اعتبار إذنه»[1].

«اتفق العلماء على أنه ليس للولي أن يعضل مولاته، ويظلمها بمنعها من الزواج، إذا أراد أن يتزوجها كفء بمهر مثلها، فإذا منعها في هذه الحال

(١) العروة الوثقى، أولياء العقد، المسألة رقم١.

كان من حقها أن ترفع أمرها إلى القاضي ليزوجها. ولا تنتقل الولاية في هذه الحالة إلى ولي آخر يلي هذا الولي الظالم، بل تنتقل إلى القاضي مباشرة؛ لأن العضل ظلم، وولاية رفع الظلم إلى القاضي»[1].

وينهى القرآن الكريم عن إعضال المرأة، أي تعويق زواجها يقول تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٣٢].

إن أي مسلم يؤمن باللَّه مشّرعًا ورقيبًا، وبيوم القيامة موعدًا للحساب والجزاء، عليه أن يتعظ بأمر اللَّه تعالى، ولا يتسبب في تعويق زواج ابنته دون مبرر مشروع، لأن ذلك ظلم لها، وسبب لوقوع المفاسد والمشاكل في المجتمع، لذلك تقول الآية ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

وقد وردت أحاديث كثيرة تحذّر من تعويق زواج البنت وتأخيره، لأن ذلك قد يفوّت عليها الفرصة المناسبة، كما يحدث الأضرار النفسية والأخلاقية في المجتمع.

كان علي بن أسباط من أصحاب الإمام محمد الجواد عليه السلام، وكانت له بنات يرغب في تزويجهن من علماء فضلاء مثله، فأصبح ذلك سببًا في تأخير زواجهن، فكتب رسالة للإمام الجواد عليه السلام، فأجابه الإمام: «فهمت ما ذكرت من أمر بناتك وأنك لا تجد أحدًا مثلك، فلا تنظر في ذلك رحمك اللَّه، فإن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله قال: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه

(١) السيد سابق، فقه السنة، ج٢، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م، (بيروت: دار الكتاب العربي)، ص١٣٦.

فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[1].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[2].

وعن علي عليه السلام قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، قلت: يا رسول اللَّه وإن كان دنيًّا في نسبه؟ قال: إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[3].

وصعد رسول اللَّه ﷺ المنبر ذات يوم فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن جبرئيل أتاني عن اللطيف الخبير فقال: إن الأبكار بمنزلة الثمر على الشجر، إذا أدرك ثمارها فلم تجتن أفسدته الشمس ونثرته الرياح، فقام إليه رجل فقال: يا رسول اللّه، فمن نزوّج؟ فقال: الأكفاء. فقال: يا رسول اللَّه ومن الأكفاء؟ فقال: المؤمنون بعضهم أكفاء بعض، المؤمنون بعضهم أكفاء بعض[4].

فمقياس الكفاءة والصلاح: التدين والسلوك الحسن، ومتى توفرا في المتقدم للبنت، لم يكن ثمة مبرر عند وليها للتعويق والتأخير، وملحوظ تكرار التشديد والحذر في الأحاديث، بأن تعويق الزواج يسبب الفتنة والفساد الكبير في المجتمع.

(١) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص٧٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٧٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٦١.

موافقة الأهل وصعوبة التزويج

أكَّدَتِ النصوص الواردة، على أنه ينبغي للإنسان أن يُحْسِن الاختيار، وفي الاختيار يَلزم أن نفرِّق بين الأشياء الأساسية اللازمة، وبين الأشياء التفضيلية.

فإن المشهور عند علماء الشيعة، هو أن المسلم كُفؤُ المسلم؛ فالكفاءة المشترَطة عندهم هي توفر الكفاءة في الدين فقط؛ هذا هو الرأي والحكم المعتبر عند فقهائنا السابقين، وكذا المعاصرين، وبعبارة علمية دقيقة:

المشهور هو أن «المسلم كفؤ المسلمة، والمؤمن كفؤ المؤمنة» ولا شيء غير ذلك؛ والحديث الشريف فيه ما يشير ضمنياً إلى هذا الشرط الوحيد، حيث يقول: «إذا جاءكم من تَرضون خُلُقَه»؛ يعني تعامله مع من سيَقترن به. و(دِينه)؛ أي أن يكون دِينه الإسلام كما أشار صاحب الجواهر بقوله:

«قوله ﷺ: (إذا جاءكم) إلى آخره خطاب مشافهة، ومن المعلوم أن من لا يرضى دينه في زمنه ﷺ من لم يكن مسلما، فلا يستفاد حينئذ منها بقاعدة الاشتراك أزيد من ذلك»[1].

نعم؛ هناك مرجحات تدخل ضمن الاستحباب والكراهة؛ حيث يفضَّل اختيار الزوج الأكمل، لكن شرط الإسلام يكفي بمفرده في صحة الزواج ولزومه عند مشهور فقهاء الشيعة؛ أما عند إخواننا أهل السنة،

(١) محمد حسن النجفي، جواهر الكلام، ج١٠، الطبعة الأولى١٤١٢هـ، (بيروت: مؤسسة المرتضى العالمية ـ دار المؤرخ العربي)، ص٦٧٧.

فالكفاءة لها بحث مفصل؛ إذ إن هناك العديد من المسائل التي يشترطونها في الكفاءة، حيث تَحدثوا عن خصال أخرى غير شرط الدِّين، نذكر منها مثلاً:

شرط «النَّسب»، فهو مسألة معتبرة عند الشافعية والحنفية والحنابلة؛ بمعنى ألا يكون نسب الزوج أقل مرتبة من نسب الزوجة؛ حيث استدلوا على ذلك بقول الخليفة عمر بن الخطاب: «لأَمنعنَّ تزوج ذوات الأحساب من النساء، إلا من الأكفاء»[1]، وفي رواية أخرى سُئِل: «مَن الأكفاء؟ قال: الأحساب»[2].

هذا وعند الشافعية والحنفية والحنابلة، النسب بالآباء؛ فالعجمي أباً وإن كانت أمه عربية، ليس بكفءٍ للعربية، وإن كانت أمها عجمية. إلا أن مالك ذهب إلى عدم اعتبار النسب في الكفاءة[3]، فالمالكية يقولون بأن أهل الإسلام كلهم بعضهم لبعض أكفاء، فالمذهب المالكي رأيه في المسألة كرأي الشيعة.

وبناءً على هذه الآراء، رأَينا بعض المحاكم حَكمت بالطلاق؛ لعدم تكافؤ النسب، مما جعل ذلك من القضايا المثيرة والمتداولة في الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى أمام الرأي العام.

(١) كنز العمال، ج١٦، ص٥٣٤، حديث٤٥٧٨

(٢) عبدالله بن أحمد بن قدامة. المغني، ج٧، الطبعة الثانية١٤١٢هـ، (القاهرة: هجر للطباعة النشر)، ص٣٧٥.

(٣) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الموسوعة الفقهية، ج٣٤، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ، (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، ص٢٧٢-٢٧٤.

إن العالمَ الآن تَغيَّر؛ وما عاد التكافؤ يدور مدار الأنساب والمهن والحِرَف، فعلى الأولى أن تُعتبَر القضية ضمن مقاييس عرفية، تختلف من زمان إلى آخر؛ فإذا كان يصح التعيير في الماضي، أو الشعور بالدناءة والحقارة، فلم يَعد الأمر قائماً في العصر المتحضر.

بالنسبة للشيعة، المشهور عند فقهائهم أن هذا الشرط غير معتبَر في صحة العقد، فضلاً عنه في لزومه، فالمسلم كفؤ المسلمة، والعكس، حتى لو اختلفت هويتاهما، أو مذهباهما، أو قوميتاهما؛ فهناك روايات عدة تدلِّل على هذا، قام على أساسها رأي فقهاء الإمامية.

الزواج بين التعاليم والتقاليد

إذا كان الزواج ضرورة وحاجة ملحة للإنسان في كل عصر، فإنه في هذا الزمن أكثر ضرورة، وأشد إلحاحًا. وذلك لما يتعرض له إنسان اليوم من وسائل تحريض للشهوة، وعوامل إثارة للغريزة، تجعله يعيش حالة من الهياج والاندفاع الجنسي العنيف. فوسائل الإعلام وأجهزة الاتصالات تتفنن في إذكاء الغرائز والشهوات، إضافة إلى انتشار أجواء الخلاعة والابتذال. ولم تعد هناك حدود أو مراعاة لشيء من الحياء والاحتشام، الذي كان يميّز الإنسان في ممارساته لغرائزه عن بقية الحيوانات.

كما تحيط بالإنسان المعاصر الكثير من دواعي القلق، وأسباب الاضطراب النفسي، للتعقيدات التي يواجهها في توفير متطلبات الحياة، وللأخطار والتحديات المختلفة التي تنتصب أمامه على الصعيد الشخصي والاجتماعي.

وبذلك تزداد حاجة الإنسان إلى مأوى يلجأ إليه ليمنحه الطمأنينة والاستقرار، وإلى قناة سليمة، وإطار مشروع، يمارس من خلاله غريزته الجنسية الطبيعية.

والزواج هو ذلك الحصن الحصين والكهف المنيع، الذي يوفر للإنسان أجواء الراحة النفسية، واللذة الغريزية، ففيه سكون واطمئنان نفسي، حيث يشعر كل من الزوجين بوجود من يشاركه هموم الحياة، ويعينه على مشاكلها، ويمكنه الانفتاح عليه، وبثه آلامه وآماله، لذلك يصف اللَّه تعالى الزوج بأنه سكن للإنسان، فالرجل سكن لامرأته، وهي سكن له، أي يتوفر في كل واحد للآخر سكون النفس واطمئنانها. يقول تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[سورة الروم، الآية: ٢١] والخطاب موجه للرجال والنساء.

وبالزواج يصبح الإنسان أكثر حصانة ومناعة تجاه الانحرافات السلوكية، والمفاسد الأخلاقية، بل وتجاه مختلف الجرائم. وهذا ما تدل عليه الإحصاءات والأرقام. فالمتزوج أمامه طريق سالك لإشباع رغباته وشهواته، وهو غالبًا ما يفكر في تصرفاته وممارساته، لما يشعر به من مسؤولية عائلية وأسرية.

أخرج البخاري عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ شبابًا لا نجد شيئًا فقال لنا رسول اللَّه ﷺ: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ـ أي النفقة ـ فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج»[1].

وإشارة إلى دور الزواج في التحصين عن الانحراف قال ﷺ فيما

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، حديث ٥٠٦٦.

روي عنه: «أيما شاب تزوج في حداثة سنه عجّ شيطانه: يا ويله! عصم مني دينه»[1].

كما يشير حديث آخر إلى أن عدم الزواج يعني نسبة أكثر من احتمالات الشر والانحراف، يقول ﷺ فيما روي عنه: «شراركم عزابكم»[2].

بين مسؤولية الفرد والمجتمع

أصبح تأخير الزواج للشباب والشابات هو الحالة السائدة في مجتمعاتنا، حيث تستغرق الدراسة حوالي ثمانية عشر عامًا، إضافة إلى الست السنوات الأولى قبل سن الدراسة، وبعد التخرج يحتاج الإنسان إلى بضع سنوات حتى يجد له عملًا، وحتى يكوّن نفسه ليكون قادرًا على توفير مستلزمات الزواج.

وهذا يعني أن يقضي الشباب والشابات أهم الفترات حرجًا وحساسية في حياتهم العاطفية والنفسية، وهم في حالة العزوبة، مما يعرضهم للكثير من مخاطر الانزلاقات والانحرافات، ويعرّض أمن المجتمع الأخلاقي للاهتزاز والاضطراب.

إن المجتمع الذي يفكر في تحصين أمنه واستقراره، ويهتم بصلاح وإصلاح أبنائه، يجب أن يسهّل وييسر أمور الزواج، ويساعد الشباب على الإسراع في بناء حياتهم العائلية.

وإذا ما تأملنا النصوص والتعاليم الدينية نراها تحمّل المجتمع

(١) كنز العمال، ج١٦، ص٢٧٦، حديث ٤٤٤٤١.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٧، حديث ٤٤٤٤٨.

مسـؤولية زواج أبنائـه، يقول تعـالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[سورة النور، الآية: ٣٢].

﴿وَأَنكِحُوا﴾ أي زوِّجوا، وهو خطاب للمجتمع بأن يزوجوا العزاب، حيث لم يخاطب العزاب هنا بأن يتزوجوا، وإنما خاطب الناس أن يزوِّجوهم. ذلك لأن الزواج غالبًا ليس قضية فردية يقوم بها الطرفان المعنيان فقط، وبمعزل عن الارتباطات والتأثيرات الاجتماعية، كسائر الأمور من بيع وشراء وإجارة، بل هو مسألة لها أبعادها وارتباطاتها المؤثرة بأكثر من جانب اجتماعي. كما أن من يريد تأسيس حياته العائلية وخاصة لأول مرة، قد يحتاج إلى دعم وعون مادي ومعنوي، لمساعدته على إنجاز هذه المهمة وإنجاحها. من هنا يتوجه الخطاب إلى المجتمع ﴿وَأَنكِحُوا﴾.

و﴿الأَيَامَى﴾ جمع (أيِّم) على وزن (قيِّم) وتعني الإنسان الذي لا زوج له رجلًا كان أو امرأة، وإن كان قد كثر استعمال هذه الكلمة في الرجل إذا ماتت امرأته، وفي المرأة إذا مات زوجها، لكنه كما نصَّ اللغويون: تشمل كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها بكرًا أو ثيبًا.

وإذا كان بعض الأشخاص، يعانون من الضعف الاقتصادي، فإن زواجهم قد يكون دافعًا لهم للمزيد من العمل والإنتاج، كما أن اللّه تعالى سيبارك لهم ويوسع عليهم، بتحملهم لمسؤولياتهم العائلية والاجتماعية.

الإعفاف

الإعفاف لغة: فعل ما يحقق العفاف للنفس أو للغير. واصطلاحًا يقصد به الفقهاء: تزويج المحتاج للزواج لتجنيبه الوقوع في الحرام.

وقد ناقش الفقهاء المسلمون من مختلف المذاهب الإسلامية هذه المسألة على الوجه التالي: هل يجب على الإنسان، إذا كان قادرًا متمكنًا أن يوفّر تكاليف الزواج لمن يحتاج إلى الزواج ممن تجب نفقته عليه كوالديه وأولاده؟ أم أن ذلك مستحب ومندوب إليه فقط دون أن يرقى إلى مستوى الوجوب؟

المشهور عند فقهاء الشيعة أنه لا يجب إعفاف من تجب النفقة له ولدًا كان أو والدًا بتزويج أو إعطاء مهر أو تمليك أمة أو نحو ذلك مما يناسب حالة الإعفاف، وإنما هو أمر مندوب مستحب[1].

ونقل عن بعض فقهائهم القول بالوجوب للأب وإن علا، لأن ذلك من أهم المصاحبة بالمعروف المأمور بها في الآية: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[سورة لقمان، الآية: ١٥] ولأنه من وجوه حاجاته المهمة فيجب على الابن القيام به كالنفقة والكسوة[2].

وهو رأي فقهاء أهل السنة «يلزم الولد إعفاف الأب والأجداد على

(١) جواهر الكلام، نفقة الأقارب، ج١١، ص٢٤٢.

(٢) الشيخ يوسف البحراني، الحدائق الناضرة، ج٢٥، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص١٢١.

المشهور»[1] لكن الراجح عند الحنفية أنه لا يلزمه سواء وجبت نفقته أو لم تجب[2].

دور الحقوق الشرعية

والمساعدة على الزواج للمحتاجين من أفضل موارد صرف الحقوق الشرعية، لأنها تحقق غرضين أساسين في وقت واحد، هما قضاء الحاجة، وحماية الأخلاق والقيم، لذلك أفتى الفقهاء بأنه يصح أن يصرف من أموال الزكاة لتزويج المؤمنين المحتاجين للزواج، مع ضعف وضعهم الاقتصادي.

ولا يجب إعلام الفقير المحتاج إلى الزواج أن المدفوع إليه زكاة، بل لو كان ممن يترفع ويدخله الحياء منها، وهو مستحق، يستحب دفعها إليه على وجه الصلة ظاهرًا والزكاة واقعًا[3].

ويجوز للوالد أن يدفع زكاته إلى ولده للصرف في مؤنة التزويج وكذا يجوز للولد أن يصرف زكاته في تزويج والده[4].

وكذلك فإن الخمس ينقسم في مصرفه إلى نصفين: نصف للسادة الهاشميين، والنصف الآخر للإمام فمن مصارف النصف الأول تزويج

(١) الشيخ محمد الشربيني الخطيب، مغني المحتاج، ج٣، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص٢١١.
(٢) الموسوعة الفقهية، ج٥، ص٢٥٨.
(٣) العروة الوثقى، الزكاة، أصناف المستحقين، مسألة ١٢.
(٤) المصدر نفسه، أصناف المستحقين، مسألة رقم ١٧ بناء على عدم وجوب الإعفاف كما سبق.

السادة المحتاجين للزواج، مع ضعفهم الاقتصادي. كما أنه يجوز الصرف من النصف الآخر الراجع للإمام عليه السلام من أجل تزويج المحتاجين للزواج، بعد الاستئذان من المرجع الديني أو وكيله.

كما أن مساعدة المحتاجين للزواج تعتبر من أفضل موارد البذل والصدقة، لأنها تعالج حاجة ماسة حقيقية، وتسهم في تعزيز أمن المجتمع وسد ثغرات الفساد والانحراف، كما أنها استجابة للحث الإلهي على الإنكاح والتزويج، وأن ذلك من أحب الأمور إلى اللَّه تعالى، فقد روي عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما بني بناء في الإسلام أحب إلى اللَّه عز وجل من التزويج»[1].

أحاديث عن التزويج

- عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أدرك له ولد، وعنده ما يزوجه فلم يزوجه، فأحدث فالإثم بينهما»[2].
- وفي رواية عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله: «مَن بَلَغَ وَلَدُهُ النِّكاحَ وعِندَهُ ما يُنكِحُهُ فلَم يُنكِحْهُ ثُمّ أحدَثَ حَدَثًا فالإثمُ علَيهِ»[3].
- وعنه صلى الله عليه وآله: «حَقُّ الوَلَدِ على والِدِهِ أن يُحَسِّنَ اسمَهُ ، ويُزَوِّجَهُ إذا أدرَكَ ، ويُعَلِّمَهُ الكِتابَ»[4].

(١) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص١٤، حديث ٢٤٩٠.
(٢) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٧، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٤٥.
(٣) كنز العمال، ج١٦، ص٤٤٢، حديث ٤٥٣٣٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٤١٧، حديث ٤٥١٩١.

- عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «من زوج أعزبًا كان ممن ينظر اللَّه عز وجل إليه يوم القيامة»[1].
- عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «ثلاثة يستظلون بظل عرش اللَّه يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، رجل زوج أخاه المسلم، أو أخدمه، أو كتم له سرًّا»[2].

مراسيم الزواج

لأن الزواج حدث هام في حياة الإنسان، بل لعله أهم حدث يترك تفاعلاته العميقة في وجدان الإنسان ومشاعره، ويؤثر في مجريات حياته. كما أن له انعكاساته الاجتماعية على المحيطين بالمتزوج، لذلك من الطبيعي أن ترافقه مراسيم احتفاء، وبرامج إعلام وإظهار، تتيح الفرصة للتعبير عن مشاعر الفرح والسرور، عند المتزوجين والمحيطين بهما، وتكشف عن مدى تعاطف الآخرين وتقديرهم بالمشاركة والتفاعل.

ومراسيم الزواج هي إعلان عن ولادة كيان اجتماعي جديد، وتأسيس علاقة محترمة في شرع المجتمع وأعرافه، وتوثيق لروابط المحبة والود والتآلف بين أبناء المجتمع.

من هنا شجع الإسلام على الاحتفاء بالزواج، وإقامة مراسم مناسبة له، كصنع الوليمة والإطعام، وزفاف العريسين.

ويمكن لمراسيم الزواج أن تتطور أساليبها وبرامجها، مع اختلاف

(١) الكافي، ج٥، ص٣٣١.
(٢) وسائل الشيعة، حديث ٢٤٩٩٤.

العصور والمجتمعات والظروف لكن ما ينبغي التنبيه إليه أمران:

أولاً: أن تبقى في إطار مراعاة الأحكام الشرعية، فلا يجوز شرعًا أن يحصل تجاوز لأحكام الستر والحجاب بين النساء والرجال الأجانب، وإذا كان بعض الفقهاء قد أجازوا الغناء للنساء في مناسبة الزواج دون استخدام آلات اللَّهو كما هو رأي السيد الخوئي والسيد الشيرازي والشيخ التبريزي[1] لكن ذلك مشروط بأن لا يصل صوت غنائهن للرجال الأجانب.

ومن المخالفات الشرعية تداول تصوير حفلات الزواج النسائية، وتسربها إلى الرجال الأجانب. وقد نشرت إحدى الصحف تحقيقًا حول الموضوع تحت عنوان «تسرّب أشرطة حفلات الزواج بالسعودية يثير مشكلات أسرية بعضها ينتهي بالطلاق»[2].

ثانيًا: الحد من المبالغة المتصاعدة في هذه المراسيم التي تثقل كاهل المتزوجين وأهاليهم، حيث تستنزف مبالغ طائلة، وجهودًا مضنية، تجعل تكاليف الزواج باهظة معقدة، مع ما نعيشه من صعوبة في الظروف الاقتصادية.

والملاحظ استمرار الزيادات والموضات الجديدة، في ما يرتبط

(١) السيد محمد الشيرازي، نشرة أجوبة المسائل الشرعية، ج٢، ص١٠١. السيد أبو القاسم الخوئي. الشيخ جواد التبريزي، صراط النجاة، ج١، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، (الكويت: مكتبة الفقيه)، ص٣٧٤.

(٢) جريدة الوطن السعودية الصادرة بتاريخ ١/ ٤/ ١٤٢٢هـ.

بحفلات الزواج والتنافس على عقدها في أضخم الصالات، وتقديم الولائم بطريقة فيها الكثير من الإسراف والتبذير، ثم التفاخر بأغلى الفساتين لليلة الزفاف، وأحدث موديلات السيارات للزفة، وإلى قائمة من العادات والتقاليد المرهقة الباهظة.

إن المجتمع بحاجة إلى ثقافة واعية لتغيير هذه العادات والتقاليد، وإلى مبادرات شجاعة من قبل فتيان وفتيات يتمردون على هذه الموضات والموديلات في مراسيم الزواج، ويعودون بها إلى حالة البساطة واليسر، كما تؤكد تعاليم الإسلام يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٨٥].

العنوسة ومسؤولية المجتمع

خلق اللَّه تعالى الإنسان من شقّين، شق يطلق عليه الذكر، والشق الآخر يطلق عليه الأنثى. وأوجد عند كل من الشقين اندفاعًا باتجاه الآخر، وجعل الحياة قائمةً على الالتقاء بين هذين الشقين، وتكاملهما معًا فلا يستطيع أحد الشقين أن يمارس حياته بسعادة وهناء، وأن يؤدي وظيفته التي كلف بها في هذه الحياة وحده، بل لا بدّ من مشاركة الشق الآخر. لذلك ومنذ اليوم الأول خلق اللَّه تعالى آدم عليه السلام وخلق إلى جانبه حواء، وحينما أسكنه الجنة، أسكنه مع زوجه، قال تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٣٥] وحينما أنزله إلى الأرض أنزله مع حواء أيضًا. لأن بناء الحياة لا يتم ولا يستقيم إلا بتلاقي الشقين وتكاملهما معًا.

ولكن كيف يتلاقى هذان الشقان (الذكر مع الأنثى)؟ بالطبع لا بد وأن يكون هذا اللقاء ـ الذي سوف تترتب عليه مهام ووظائف وأدوار ـ مقننًا ومنظمًا.

يقال إن البشرية في عهودٍ سحيقة كانت تعيش حالة من الشياع في مختلف جوانب الحياة، ومنها الجانب الجنسي، كان كل رجلٍ مشاعًا لكل النساء، وكانت كل امرأة مشاعةً لكل الرجال، ولكن كيف كانت هذه الحياة ومتى كانت؟

نحن نعتقد أن الحياة البشرية كانت وفق الفطرة، وفق التوجيه الإلهي، بداية الحياة البشرية كانت بأبينا آدم ﷺ وأمنا حواء، واستمر الهدي الإلهي والوحي السماوي على المجتمعات البشرية، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[سورة الرعد، الآية: ٧].

وحتى لو صحت هذه الفرضية، فإنها كانت حالة بدائية، قد تجاوزتها البشرية، وأصبحت حالة التلاقي بين الرجل والمرأة قائمة على أسس ونظم، تختلف من مجتمع إلى آخر، ومن ديانة إلى أخرى. والشيء الأكيد أن عملية التلاقي بين الرجل والمرأة، والمشاركة في بناء حياة مشتركة لا تتم اعتباطًا، ولا بشكل عفوي، وإنما تتم على أساس قوانين وأنظمة أو أعراف وتقاليد، أو أحكام وتشريعات، يؤمن بها المجتمع في أي عصر من العصور.

لذا فإن قضية الزواج والنكاح ليست خاصة بمجتمع دون آخر. كل المجتمعات البشرية متدينة أم غير متدينة، دينها سماوي أو وضعي، لا بدّ من وجود قانون لها ينظم حالة التلاقي والمشاركة بين الرجل والمرأة في بناء هذه الحياة الإنسانية.

وهذا ما يشير إليه ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «لكل قوم نكاح»[1].

الدين الإسلامي والزواج

حثَّ الإسلام على الزواج، وشجّع بناء الأسرة والعائلة، ومن الآيات القرآنية في هذا المجال قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٢].

لماذا يتزوج الإنسان؟ ولماذا يبني له عائلة، رجلًا كان أو امرأة؟ وهذا يشبه سؤالنا: لماذا يأكل الإنسان، ولماذا يشرب ويتنفس، كما أن هذه الأمور حاجات بيولوجية عند الإنسان، لا يستغني عنها، ويندفع إليها بشكل تلقائي، فإن الزواج يعبّر عن حاجة طبيعية في كيان الإنسان.

الزواج له آثار كبيرة على الإنسان، من أهمها:

- الزواج تلبية لغريزة أساس هي الغريزة الجنسية.
- الزواج مصدر اطمئنان واستقرار نفسي. فالإنسان في هذه الحياة يواجه مشاكل وصعوبات، وهو بحاجة إلى شريك، يفضي إليه بهمومه وآلامه وآماله، يشاركه السير في دروب هذه الحياة الوعرة الشاقة، ويساعده في مواجهة مشاكل ومتاعب الحياة، وعلى القيام بوظائفها. والقرآن الحكيم يعبر عن هذه الحالة بقوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[سورة الروم، الآية: ٢١] فالرجل سكن

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، الطبعة الثانية ١٣٧٨هـ، (النجف الأشرف: دار الكتب الإسلامية)، ج٧، ص٤٧٢، حديث ١٨٩١.

للمرأة كما أن المرأة سكن للرجل، إذ تسكن وتطمئن نفس كل منهما للآخر، فالزواج يوفر الاستقرار النفسي والاطمئنان الروحي.

- الزواج طريق استمرار النسل البشري.
- الزواج من بواعث الحركة والعمل. لأن الإنسان حينما يتزوج يشعر بالمسؤولية، وهذا الشعور يدفعه للعمل والإنتاج. حينما يتزوج الشاب وتصبح عليه مسؤولية الزوجة، والعائلة والأولاد، فإن هذا يدفعه للعمل والكدح. بل نجد أن الإنسان حينما يعي الحياة فإنه يكدح ويعمل من أجل أن يكوّن الحياة العائلية. ومن هنا نفهم معنى بعض الروايات التي تعتبر الزوج سببًا للبركة والغنى، يقول تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. المسألة ليست حالة غيبية فقط، وإنما لأن الزواج يدفع للإنتاج والعمل والكدح.

وفي الأعراف الاجتماعية يعتبر الزواج مظهر اكتمال لشخصية الإنسان، رجلًا أو امرأة. وإذا قرأنا تاريخ الحضارات والأمم السابقة نجد أن الكثير من الأمم والمجتمعات لها تشريعات وأعراف تؤكد قدسية ومكانة الزواج. كما يُنقل عن المجتمع الصيني القديم أنهم كانوا يعتبرون الزواج مكملًا لشخصية الإنسان، حتى إنهم في كل سنة وفي مواسم معينة عندهم طقوس وعادات لعقد الزواج بين أرواح الميتين من الرجال ـ بدون زواج ـ والميتات من النساء ـ بدون زواج ـ فترتاح العائلة لأن روح

المتوفى لم تبق دون زوج.

كما يُنقل أنه في دولة أسباطا القديمة كانوا يعتبرون عدم الزواج (العزوبة) ـ بعد بلوغ السن القانوني ـ نوعًا من الجريمة. وفي مجتمع فارس القديم سنّوا قانونًا للزواج الإجباري، في كل سنة تجمع الدولة الشباب والشابات الذين بلغوا سن الزواج ولم يتزوجوا بعد، وتجبرهم على الزواج، إما يختارون لأنفسهم أزواجًا أو يكون الأمر عبر لجان معينة، كل ذلك يبين أن المجتمعات البشرية بفطرتها تعتبر الزواج مكملًا لشخصية الإنسان، والتشريعات الإسلامية تعزّز هذا الاعتبار والتوجه، هناك روايات كثيرة تقرر أن الإنسان المتزوج أفضل من العازب، كما ورد عن رسول الله ﷺ: «شراركم عزّابكم»[1]، وورد عنه ﷺ: «شرار موتاكم العزّاب»[2]، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب»[3]. هذه النصوص تؤكد أن الزواج مكمل لشخصية الإنسان، لأن الإنسان حينما يتزوج تكون غرائزه وشهواته قد صبت في القنوات الطبيعية، بينما إذا لم يكن متزوجًا من المحتمل أن يسلك بغرائزه وشهواته طريقًا منحرفًا.

مسؤولية المجتمع تجاه العنوسة

العنوسة: لغة: من عنست الجارية، إذا بقيت في بيت أهلها بعد إدراكها سن الزواج ولم تتزوج.

(١) كنز العمال، ج١٦، ص٢٧٧، حديث٤٤٤٤٧.
(٢) بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٢٢٠، حديث١٩.
(٣) الكافي، ج٥، ص٣٢٨.

وفي العرف الاجتماعي: فإن الفتاة حينما تتعدى السن المتعارف للزواج يطلق عليها عانس، ويطلق على الرجل أيضًا، وقد يطلق على المرأة التي يتأخر زواجها عانس، وعلى الرجل الذي يتأخر زواجه عازب.

والمجتمع يتحمل حالة العنوسة في صفوف الفتيات، أو تأخر الزواج في صفوف الشباب، ويتحمل الأخطاء والمضاعفات التي قد تنتج عنها.

ماذا ينتج عن وجود حالة العنوسة عند الفتيات أو تأخر الزواج عند الشباب؟

تحصل المعاناة النفسية للشاب أو الشابة حينما يتأخر زواجهما؛ لأنهما بشر ومن حقهما أن يتمتعا بحياتهما كما يتمتع الآخرون، ومن حقهما أن يمارسا حياتهما الطبيعية كباقي المجتمع، فإذا حرما من هذا الحق فإنه ينتج عن ذلك معاناة نفسية خطيرة، وينبغي على المجتمع الواعي أن يشعر بهذه المعاناة، وأن يتحسسها.

وقد يسبب ذلك بعض المفاسد والجرائم؛ لأن الإنسان إذا لم يجد القنوات المشروعة لممارسة غرائزه وشهواته، فقد يغريه الشيطان بسلوك الطرق الملتوية الفاسدة.

وجود العنوسة وتأخر الزواج، يضعف مسألة التنمية الاجتماعية والاقتصادية، لذلك ينبغي أن يتحمل المجتمع كله مسؤولية هذه الظاهرة.

لسنا بصدد الحديث عن كل أسباب العنوسة، ولكن نشير إلى أهمها وهي:

أولاً: عدم تيسير الزواج

كلما أصبح شأن الزواج ميسرًا، قلّت ظاهرة العنوسة وتأخر الزواج.

ثانيًا: ارتباط الزواج بالتعليم

حيث تستمر العملية التعليمية إلى منتصف العقد الثالث من عمر الشاب والفتاة، وبعدها تبدأ مرحلة البحث عن وظيفة وتوفير مستلزمات تكوين الأسرة.

ثالثًا: تعقيدات اختيار الزوج

بعض الشباب يتشددون في اختيار شريكة الحياة، وكذلك الحال بالنسبة للفتيات. إن حسن الاختيار مطلوب، ولكن ضمن مقاييس معقولة ومبدئية هي ما عبّر عنها الحديث الشريف عنه ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير».

وفي بعض الأحيان يكون الأهل عقبة في طريق تسهيل الزواج، بتدخلاتهم في اختيارات أبنائهم وبناتهم.

رابعًا: التكاليف المرهقة

لإحاطة الزواج بأعراف وتقاليد تستلزم كلفة عالية. بدءًا من حفلة الخطوبة وتكاليفها، وغلاء المهور، وتكاليف حفلة ليلة الزفاف. ولا حل تجاه ذلك إلّا الجرأة والشجاعة، بأن يصرّ الشباب والشابات على أن يتزوجوا زواجًا مبسطًا دون مبالغة في التكاليف.

علينا أن نيسِّر شأن الزواج ليتمكن الشباب من الزواج في سن مبكر.

ويمكن القول إن الزواج حتى في مرحلة الدراسة جيد ومناسب، إن كان وضعه الاقتصادي أو وضع أهله يسمح بذلك. فإن الشاب حينما يكون متزوجًا يكون أكثر اطمئنانًا وثقة، وأهدأ نفسيًا، ويكون إقباله على الدراسة أكثر تركيزًا وارتياحًا.

إنه في أوج نشاطه وقوته واندفاعه الغريزي، فلماذا تفوت هذه السنوات على الولد والبنت دون زواج. ينبغي أن نوفق بين متطلبات التعليم ومسألة الزواج، عبر التسهيل والتيسير.

وليس ضرورة أن يقترن الزواج بتحمل مسؤولية إنشاء بيت وعائلة، فلتكن الفتاة في بيت أهلها، والشاب في بيت أهله، وبينهما عقد زواج، وفرصة للتلاقي.

مؤسسات للزواج

ينبغي أن تكون هناك جهات في المجتمع تشجع على الزواج، وتساعد في إنجاز هذا البناء. هناك روايات كثيرة تؤكد أهمية هذا الدور وفضله، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «من زوّج أعزبًا كان ممن ينظر الله عز وجل إليه يوم القيامة»[1]. وهذا يلفت نظرنا أن الدين يولي الخدمة الاجتماعية والإنسانية اهتمامًا أكثر من القضايا العبادية، لأنها حالة فردية بين الإنسان وربه، بينما السعي في زواج إنسان يعني بناء صرح أسرة، وتحصين أبناء المجتمع. وفي رواية .

(١) الكافي، ج ٥، ص ٣٣١.

الفصل الثالث

في العلاقات الأسرية

أخلاق التعامل في الأسرة والمجتمع

إن أخلاق الإنسان هي سجاياه وطبائعه، التي يدير بها حياته، ويتعامل من خلالها مع الناس.

وكثير من الأفراد يقعون تحت وطأة الاستسلام للسلوكيات التي ألفوا السير عليها، ولا يقبلون المناقشة، معللين ذلك بأن هذه طريقتهم وطبيعتهم.

وعلى ضوء ذلك نسأل:

- هل إن سلوك الإنسان وطرق تعامله مع الآخرين حتمية ثابتة لا يمكن تغييرها؟
- هل طريقته في التعامل مع الآخرين هي المثالية بحيث لا طريقة أفضل منها؟
- هل يطرح الفرد على نفسه سؤالاً عن كيفية علاقته مع والديه، وزوجه، وأبنائه، وسائر أرحامه، فيسعى بعد ذلك لتصحيحها أو تطوير القاصر منها؟

لا شك أن الإنسان لديه القدرة على تغيير سلوكه وأنماط معاشرته للناس، وإلا لو لم يكن قادرًا على ذلك لما صحّ معاقبته ومحاسبته، وأصبح لا جدوى من وضع المناهج لتعديل السلوك الإنساني.

وتحسين الخلق، ليس فقط بالانتقال من السلوك السيئ إلى الحسن، بل هو أيضًا رفع درجة الأخلاق إلى مستوى أفضل.

مبادرات يسيرة ذات قيمة عالية

- هل تعوّدت حينما تدخل بيتك أن تلقي السلام على عائلتك؟
- إن لم تكن متعوّدًا، فعوّد نفسك السلام على أهلك، حينما تدخل بيتك. فليس إلقاء السلام على الأجانب فقط.
- هل عوّدت نفسك شكر عائلتك وأبنائك على ما يقدّمونه من خدمات منزلية؟
- لماذا لا توجّه شكرك لزوجتك إذا قدمت لك طعامًا أو أيّ خدمة أخرى؟ فله الأثر الطيب على قلبها ونفسها.
- وكذلك الزوجة في المنزل، إذا جلب زوجها حاجيات العائلة ومستلزماتها، مع أن هذا من واجباته، لكن أن تشكره وتدعو له بطول العمر والسعة في الرزق، فإن هذا الإسلوب له تأثير كبير على الطرفين، وعلى الأبناء، الذين سيجنون ثمرة هذه العلاقات الطيبة بين الوالدين، التي من أهمّها الاعتياد على شكر من أحسن إليهم. وكذلك الإحسان إلى والديهم. هذه العادات والتجارب اليسيرة على الإنسان أن يواظب عليها؛ لأنها من الخير، وكما ورد

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الخير عادة»[1].

تصحيح لمفهوم خطأ

ليس صحيحًا أن يبرّر الإنسان لنفسه قوله: إن هذا من طبيعتي، فماذا أصنع؟

الإمام علي عليه السلام يقول فيما روي عنه: «لا تسرعنّ إلى الغضب فيتسلّط عليك بالعادة»[2]، فإذا عوّدت نفسك تصبح أسيرًا لتلك العادة.

وورد عنه عليه السلام: «تخيّر لنفسك من كلّ خلقٍ أحسنه، فإن الخير عادة، وتجنب من كلّ خلق أسوأه وجاهد نفسك على تجنبه»[3]، وعنه عليه السلام: «عوّدوا أنفسكم الحلم»[4].

وورد عنه عليه السلام أنه قال: «عود لسانك لين الكلام وبذل السلام»[5].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إذا لم تكن حليمًا فتحلّم»[6]. حاول أن تعود نفسك على الحلم بالسيطرة على أعصابك، ولا تنفعل حينما يكون هناك ما يسيء إليك ويزعجك.

بين المجتمع الشرقي والغربي

ذات مرة أعدّت إحدى الفضائيات برنامجًا تلفزيونيًّا يطلق عليه

(١) عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، طبعة ١٤١٠هـ، (دار الكتاب الإسلامي)، حكمة ١٠٢.
(٢) المصدر نفسه، حكمة ١٣٩.
(٣) المصدر نفسه، حكمة ١٠٢.
(٤) تحف العقول، ص٢٢٤.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٣.
(٦) الكافي، ج٢، ص١١٢.

«الكاميرا الخفية» حيث يواجهون فيه الإنسان بتصرّف استفزازي، ليروا ردة الفعل الصادرة عنه. فقاموا بإجراء تجربة رشّ الماء، بشكل فجائي، على مجموعة من الأشخاص، الذين ينتمون لأحد المجتمعات الغربية، وإلى مجموعة أخرى تنتمي لأحد المجتمعات الشرقية، وقاموا بمقارنة ردود الفعل بين المجموعتين، فبدا الفارق واضحًا. ففي المجتمعات الغربية كانوا يبتسمون ويضحكون، ويردّدون عبارات فيها نوع من المزاح والابتهاج؛ لأنه بالتأكيد حينما يواجه الإنسان هذا التصرف فإنه ينزعج في بداية الأمر، ثم ما يلبث أن يفكر لماذا هذا التصرف؟ فهناك من يدرك أن هذا التصرف لا بُدّ وأن يكون له باعث معيّن، فلماذا الانفعال والانزعاج؟

أما في المجتمع الشرقي، فكانت ردّة الفعل أن انطلق اللسان كالبارود، إذ ينفجر بالسّباب والشّتائم.. المسألة إذًا ترتبط بالحالة النفسية والتعوّد.

حسن الاستماع

ومن العادات التي اهتمّ الإسلام بها حسن الاستماع، فعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «عوّد أذنك حسن الاستماع»[1]، فالمشكلة التي تتكرر في كثير من المجالس، هي قطع السامع كلام المتكلم، وإدخال حديث آخر على كلامه، وهي عادة سيئة، ولا تلتقي مع ما تنشده تعاليم ديننا الحنيف.

(١) علي بن محمد الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص ٣٤١.

الحياة العائلية ومبدأ الشراكة

تمثل الحياة الأسرية في جوهرها شراكة مصيرية. وذلك تبعًا للشريعة الإسلامية، والأعراف الدولية، على حدٍّ سواء، ومن هنا جاء الاحتفاء باليوم الدولي للأسرة الذي أقرّته الأمم المتحدة، والمصادف للخامس عشر من مايو من كلّ عام، تأكيدًا على أهمية الأسرة في الحياة الإنسانية، والقيم والمفاهيم التي يجب استحضارها ضمن الحياة الأسرية، ومن أبرز تلك المفاهيم التي أكّدتها الأمم المتحدة، ضمن دعوتها للاحتفاء بهذا اليوم، هو مفهوم الشراكة الأسرية، فالعلاقة داخل الأسرة بين الزوجين، ليست مجرّد نزوة حبٍّ وعاطفة، ولا هي علاقة تسلطية من الرجل على المرأة، أو استخدام من المرأة للرجل، إنما هي شراكة مصيرية، هي أقوى وأهمّ أنواع الشراكات في حياة الإنسان، لذلك عبّر القرآن الكريم عن هذه العلاقة تعبيرًا لم يُعبِّر به عن أيّ علاقة أخرى، بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾، حيث لم يرد في القرآن الكريم وصف بالميثاق الغليظ لأيِّ علاقة إلّا العلاقة الزوجية، فقد أخذ الله سبحانه وتعالى على الناس

ميثاقًا غليظًا مشدّدًا فيما يرتبط بهذه العلاقة.

معنى قوامة الرجل

ومع كون العلاقة الأسرية قائمة على الشراكة، إلّا أنّ ذلك لا يلغي احتفاظ الرجل بميزة الإدارة في الأسرة. فالرجل يبقى مسؤولًا عن إدارة العائلة، وهو ما يُعبّر عنه شرعًا بحقّ القوامة، وأقرب مثال يشرح مسألة الشراكة والإدارة داخل الأسرة، هو في الشركات التجارية التي ينشئها الناس فيما بينهم، فمع احتفاظ جميع الشركاء بحقوقهم كاملة داخل الشركة، إلا أنّهم في ذات الوقت يقومون بانتخاب مدير للشركة، إمّا من بين الشركاء أنفسهم أو أجنبي عنهم، ويمنح المدير صلاحية إدارة الشركة، غير أنّ هذه الإدارة لا تعني بأيِّ حالٍ تسليط أحدٍ على أحد.

وهذا هو معنى القوامة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[سورة النساء، الآية: ٣٤] والقوامة ضمن الحياة الزوجية حصرًا، بحيث يكون الرجل هو المسؤول الأول في إدارة الأسرة، دون أن يعني ذلك ممارسة التسلط أو فرض الهيمنة، ولا يعني قوامة للرجل على المرأة خارج إطار الزوجية. من هنا يأتي تأكيد القرآن الكريم للحقوق المتبادلة بين الرجل والمرأة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٢٨]، والدرجة الواردة في الآية هي درجة القوامة والإدارة للأسرة، أما فيما يرتبط بجانب الحقوق، فإنّ كلّ حقٍّ لأحدهما يقابله واجب عليه للآخر.

إنّ مضمون الشراكة بين الزوجين ينبغي أن يكون قائمًا على أساس

المودة والرحمة. كما يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[سورة الروم، الآية: ٢١]، وبذلك تكون المودة والرحمة هي الأرضية التي تقوم عليها الشراكة الزوجية، أرضية الحبّ والاحترام المتبادل بين الزوجين.

إنّ التأكيد على مسألة الشراكة في الحياة الأسرية ينتج الحرص على تحقيق النجاح عند الطرفين، وهذا يشبه إلى حدٍّ بعيد سلوك الشركاء في أيِّ مشروع عام، في حرصهم على نجاح المشروع؛ لأنّ الأرباح الواردة ستعود عليهم جميعًا، وكلما كانت الشركة أكثر نجاحًا وتقدّمًا، فستتضاعف تلقائيًّا حصة كلّ شريك، وهذا بخلاف الموظف العامل في الشركة، فهو لن يحمل همَّ الشريك بأيِّ صورة من الصور، فمرتبه الشهري مضمون، ولن يتغير كثيرًا، سواء تضاعف أو تضاءل دخل الشركة. وهكذا الأمر في الحياة الزوجية، فإذا كان كلٌّ من الزوجين ينظر إلى العائلة باعتبارها مؤسسة إنسانية قائمة على الشراكة، فسيكون أكثر حرصًا وتحمّلًا لمسؤولياته في إنجاح هذه المؤسسة ودفع المكاره والأسواء عنها.

ترويض الأنا

وتتطلب الشراكة الأسرية سلسلة أمور. أولها أن يتنازل كلّ طرف عن حالة الأنا لمصلحة هذه الشراكة، ذلك أن أسوأ ما يصيب الحياة الزوجية، أن يتجه كلٌّ من الطرفين نحو ممارسة أنانيته، وتحقيق رغباته الذاتية وحسب، والسير على هذا النحو سيكون أول خطوات الفشل في العلاقة الزوجية، فالشراكة الناجحة تتطلب استعدادًا من كلا الطرفين لتقديم

التنازل تجاه الآخر، في سبيل إنجاح هذه الشراكة.

وهذه الحالة تشكل لبّ الخلافات الزوجية في أحيان كثيرة، فالزوجة لها رغباتها الذاتية التي قد تصرّ على تحقيقها، مهما كان الثمن، والحقيقة أنه مهما كانت تجد ذاتها في تحقيق هذه الرغبات، إلّا أنّها في موازاة ذلك مطالبة بالتضحية من أجل مصلحة المؤسسة الأسرية، حتى لو كان على حساب بعض رغباتها.

وكذلك الحال مع الزوج الذي يضع جلّ تفكيره في تحقيق رغباته الخاصة، فهناك من الأزواج من درج على اغتنام أيّ عطلة للسفر بمفرده، وترك زوجته وأولاده خلفه، وهو بذلك يحمّل زوجته عبئًا أكبر في إدارة العائلة، لتعويض الفراغ الذي يتركه غيابه عن المنزل، ولا نتحدث في هذا الصدد عن السفرات الاستثنائية أو الاضطرارية التي لا مفرّ منها، وإنما نعني أولئك الذين تحوّل عندهم السّفر والغياب عن المنزل إلى نمط وسلوك عام. فإن كان مبرر سفر بعض الأزواج هو البحث عن الراحة، فتلك الراحة من حقّ الزوجة والأبناء أيضًا، فلماذا يؤثر هؤلاء الأزواج راحتهم على راحة عائلاتهم. من هنا ينبغي ألّا يكون الرجل أنانيًّا غير مهتم سوى بنفسه، إنما المطلوب أن يفكّر بروح ومشاعر الشراكة، فهو شريك أساس مع زوجه في الحياة الأسرية، ولا يصحّ أن تكون الحالة الأنانية جامحة مسيطرة على حساب تجسيد مفهوم الشراكة.

التشاور نهج الشراكة الناجحة

أما الجانب الآخر من مفهوم الشراكة الأسرية فهو التشاور في

الشؤون المرتبطة بالطرفين، وبعموم الأسرة. ويمكن أن نلمح ضمن آيات القرآن الكريم إشارة دقيقة إلى مفهوم التشاور بين الزوجين، حين يتحدث عمّا يرتبط بفطام طفلهما عن الرضاعة، فقد ورد في الآية الكريمة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٣٣]، ومضمون الآية؛ أنّه إذا أراد الزوجان فطام طفلهما عن الرضاعة قبل إتمامه السنتين من العمر، فلهما ذلك، شريطة أن يكون عن تراضٍ منهما وتشاور.

والمبدأ المهم الذي يأمر به الله تعالى هنا هو التراضي والتشاور، حتى لو كان في أصغر الأمور المتعلقة بفطام طفلهما من الرضاعة. والمستوحى من الآية الكريمة أنّ الأمور المرتبطة بالأسرة ينبغي أن تعالج عن طريق التراضي والتشاور دائمًا، وليس عن طريق فرض أحد الزوجين إرادته على الآخر. ناهيك عن انطباق النصوص الدينية الأخرى، التي تتناول مبدأ الشورى على هذا المورد، وإن كانت هناك نصوص غير ثابتة تنزع إلى إلغاء رأي المرأة، من قبيل «شاوروهن وخالفوهن»، إلّا أنّ أمثال هذه النصوص لا تنسجم مع المبادئ العامة لتعاليم الإسلام في العلاقة بين الزوجين، وبين الناس بوجه عام.

وتصل التعاليم الدينية في هذا المجال إلى الحدّ الذي تنهى المسلم عن إلزام عائلته بإعداد الطعام في المنزل تبعًا لذوقه هو، بصرف النظر عن رغبة باقي أفراد العائلة، كما جاء في حديث مروي عن رسول الله ﷺ:

«المؤمن يأكل بشهوة عياله، والمنافق يأكل أهله بشهوته»[1]، ذلك أنه من غير اللائق بالمرء أن يفرض رغباته في المنزل، حتى على مستوى اختيار وجبة الطعام التي تتشارك فيها العائلة، بل المستحسن تقديم رغبة أفراد العائلة على رغبته، ومن ثم مشاركتهم في ذلك. هكذا تربي النصوص الدينية الإنسان المسلم على أن تكون إدارته لأسرته نابعة من الشعور بالشراكة، والحرص على نجاح هذه المؤسسة.

الانفتاح والتحمل المتبادل

كما أنّ من متطلبات الشراكة في الحياة الأسرية تحقيق مبدأ الانفتاح والتحمل المتبادل بين الزوجين. فما يجري أحيانًا، هو إضمار كلٍّ من الزوجين لمشاعره السلبية تجاه الآخر، فقد يكون في نفس الزوج غضاضة تجاه زوجته، وقد يحدث العكس، مما يعني غياب الانفتاح، وافتقاد عنصر الشفافية بينهما، في حين ينبغي أن تكون بين الزوجين حالة انفتاح، فلعلّ الغضاضة الموجودة تعود لأسباب وهمية لا أساس لها، ولربما كانت أسبابًا تافهة لا تستحقّ الوقوف عندها أصلًا، وهذا بأجمعه لا يزول إلّا في ظلّ حالة انفتاح كامل بينهما. كما ينبغي أن تكون هناك حالة من التحمل المتبادل بين الزوجين، فالحياة الزوجية لا ينبغي أن تكون قائمة على التحدّي والعناد، فليس من اللائق أن ينظر كل من الزوجين للآخر باعتباره خصمًا يريد أن يكسره، فهذا أبعد ما يكون عن أجواء الشراكة والمودة، إنّ الحياة الزوجية ليست معركة نخوض غمارها

(١) وسائل الشيعة، ج ٢١، ص٥٤٢، حديث ٢٧٨١٤.

ليبحث كلُّ طرف عن كسر إرادة الطرف الآخر والانتصار عليه. ذلك أنّ الانتصار في الحياة الزوجية حتى لو كان في صالح أحد الزوجين، فهو في عمقه هزيمة، وهو أبعد ما يكون عن النصر. وقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام أنه قال: «ما ظفر من ظفر الإثم به»[1]، وهزيمة أحد الزوجين للآخر إنما تمثل مصداقًا لهذه المقولة، فليس نصرًا أن يهزم الزوج زوجته، أو تنتصر الزوجة على زوجها، بل هو الهزيمة بعينها.

إنّ الشراكة الزوجية تقتضي الاحترام والمودة بين الطرفين. وقد وردت في هذا السياق العديد من النصوص الدينية التي تؤكّد أهميّة التحمل المتبادل، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: «من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر ما أعطاه داوود عليه السلام على بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها مثل ثواب آسية بنت مزاحم»[2]، وعن إسحاق بن عمار قال: «قلت لأبي عبدالله جعفر بن محمد؛ ما حقّ المرأة على زوجها الذي إذا فعله كان محسنًا، قال عليه السلام: يشبعها ويكسوها وإن جهلت غفر لها»[3]، ومضمون الرواية ضرورة أن يتمتع الرجل بالمرونة والتسامح مع ما قد يبدر من زوجته من خطأ. ، والغرض من ذلك أن تتعزّز في النفوس حالة التحمّل والصبر المتبادل.

علينا أن نؤكّد مفهوم الشراكة في حياتنا العائلية، وأن تكون الأسرة

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم رقم (٣٢٧).
(٢) بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٢٤٧، حديث ٣٠.
(٣) الكافي، ج٥، ص٥١١، حديث ١.

قائمة على هذا المبدأ، بحيث يحرص الزوجان على إنجاح هذه المؤسسة الإنسانية؛ لأنّ في ذلك نجاحًا لحياتهما، ونجاحًا لذريتهما، فالذرية التي تنشأ في ظلّ أسرة منسجمة متراحمة، تكون ذرية أقرب للاستقامة والصلاح.

التنافس على الخدمة بين أفراد العائلة

تنطوي نفس الإنسان على مختلف الميول والتوجّهات السلبية والإيجابية، كما يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيتان: ٧-٨].

وللبيئة التي ينشأ ويعيش فيها الإنسان دور أساس في تنمية ميوله وتوجّهاته السلبية منها والإيجابية، فإذا كانت بيئة صالحة أظهرت وعزّزت في نفسه وسلوكه توجّهات الصلاح، أما إذا كانت البيئة غير صالحة فستنمو في شخصيته ميول الشّرّ والفساد.

والعائلة هي الدائرة الأقرب والأكثر تأثيرًا على توجّهات الإنسان وسلوكه، فقد تنمو عنده حالة الأنانية أو الغيرية، وحالة النظام أو الفوضى، وحالة المسؤولية أو اللامبالاة، وحالة التسامح أو التعصّب والتشدّد.

إنّ الأجواء السائدة في العائلة، وطريقة إدارة الحياة فيها، وأسلوب التعامل بين أفرادها، هو ما يؤثر بشكل كبير على صياغة نفسية الإنسان وتشكيل نمط سلوكه.

ويمكننا أن نرصد ثلاث منحنيات في أسلوب إدارة الشأن العائلي:

التسيب واللامبالاة

تعيش بعض العوائل حالة من التسيّب واللامبالاة في تصريف أمورها، فلا وقت محدّدًا لإعداد الطعام وتناوله، فقد يذهب الأطفال للمدرسة دون تناول وجبة الإفطار، وقد يعودون من المدرسة فلا يجدون وجبة الغداء حاضرة، وقد لا يرون أحدًا في البيت يستقبلهم عند عودتهم، وليس هناك تنظيم لوقت النوم، فبعضهم يسهر لوقت متأخر، وبعضهم ينام لمنتصف النهار، وقد يقضي بعض الأبناء ليلته خارج المنزل.

وحاجات المنزل قد لا تتوفر في الوقت المطلوب، وإذا ما احتاج شيء في المنزل للصيانة فقد يمرّ وقت طويل قبل إنجاز إصلاحه.

وحين يصاب أحد افراد العائلة بعارض صحي، لا يجد اهتمامًا مناسبًا لعلاجه، وفي التعليم ليست هناك متابعة جادة لدراسة الأولاد، ولا تواصل مع مدارسهم.

فماذا يُتوقع من سلوك أفراد عائلة تعيش مثل هذا الوضع؟!

لا شك أنهم سيتربون على هذا المسلك وتنطبع حياتهم بطابع التسيّب واللامبالاة.

الاتكالية والاعتمادية

بعض الأسر والعوائل تسودها حالة من المركزية الشديدة، بأن يتحمل ربّ الأسرة كلّ الأمور، أو تقوم المرأة بكلّ المهام، بينما لا تكون لسائر أفراد العائلة أيّ مسؤولية أو دور، بل يتّكلون على الأب في توفير

كلّ الاحتياجات، ولو حصل أيّ نقص لا يبادر أحد لتلافيه، ويعتمدون على المرأة في القيام بكلّ الخدمات، مهما تراكمت أو تعطلت، فلا أحد غيرها معنيٌ بالأمر.

وهذا الأسلوب ينتج الإرهاق والعناء لطرف، ويكرّس روح الاتكالية والاعتمادية على الغير في نفوس أعضاء الأسرة، كما يؤدي إلى تعطيل مصالحهم.

التعاون والمشاركة

يُفترض أن علاقة الفرد بأسرته هي أعمق وأوثق علاقة، فهي أصله ومحضنه، وبها ترتبط عواطفه ومصالحه، إنه جزء منها وعضو فيها، وينعكس عليه واقعها، وتتأثر حياته بأوضاعها، فهو إذًا معنيٌّ بأمورها، وهذا ما يوجب أن يفكر أفراد الأسرة في شؤونها، وأن يتعاونوا معًا لإنجاح حياتهم العائلية، وإدارة منزلهم على أفضل وجه.

فالمرأة ينبغي أن تشعر الرجل بعونها له في تأمين النفقات الاقتصادية، حسب إمكانها، وخاصة إذا كان مضغوطًا من الناحية الاقتصادية، وأن تُحسن تدبير أمور المنزل لخفض المصروفات.

والرجل ينبغي له أن يساعد زوجته في أداء خدمات المنزل المتعارفة، وفي تحمّل مسؤولية التربية والرعاية للأبناء.

الخدمة المنزلية بين أعضاء الأسرة

وما يمارسه أكثر الرجال من إلقاء كلّ أعباء شؤون المنزل على المرأة، إضافة إلى تحمّلها دور الأمومة وتربية الأبناء، وحتى متابعة

تعليمهم، يمثّل تخلّيًا وتهرّبًا من المسؤولية، قد ينعكس سلبيًّا على واقع حياة الأسرة، ومستوى تلاحمها الداخلي، وحسن مستقبل أبنائها.

لقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»[1].

كما تحكي السيرة النبوية عن مشاركته ﷺ لزوجاته في تدبير شؤون المنزل، فقد سئلت السيدة عائشة: «ما كان رسول الله يعمل في بيته؟ فقالت: كان بشرًا من البشرِ، يَفْلِي ثوبَه، ويحلبُ شاتَه، ويخدم نفسَه)[2]، وروى البخاري عنها أنها قالت: «كان يكونُ في مهنةِ أهلِه، تعني خدمةَ أهلِه، فإذا حضرتِ الصلاةُ خرجَ إلى الصلاةِ»[3].

وفي حياة الزهراء ينقل لنا التاريخ صورًا من مشاركة عليّ لفاطمة في أداء مهام الخدمة المنزلية، فقد جاء عن ابن شاذان: «أنه دخل رسول الله ﷺ على عليّ فوجده هو وفاطمة ﷺ يطحنان في الجاروش، فقال النبي ﷺ: أيّكما أعيى. فقال عليٌّ: فاطمة، يا رسول الله، فقال لها: قومي يا بنيّة، فقامت وجلس النبي ﷺ موضعها مع عليّ ﷺ فواساه في طحن الحبِّ»[4].

وعن الباقر ﷺ: «إنّ فاطمة ﷺ ضمنت لعليّ ﷺ عمل البيت والعجين

(١) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، (بيروت: المكتب الإسلامي)، ص٥١٣، حديث ٢٨٥.
(٢) أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج ٨، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ، (بيروت: عالم الكتب)، ص٥٠٧، حديث٢٦٧٢٤.
(٣) صحيح البخاري، ج١، ص١٦٣، حديث ٦٧٦.
(٤) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٥١، حديث٤٧.

والخبز وقمّ البيت، وضمن لها عليّ عليه السلام ما كان خلف الباب نقل الحطب وأن يجيء بالطعام»[1].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يحتطب ويستقي ويكنس وكانت فاطمة عليها السلام تطحن وتعجن وتخبز»[2].

من جانب آخر، ينبغي إشراك الأبناء في إدارة البيت، ليتربوا على تحمّل المسؤولية، ويكتسبوا تجارب الحياة، كما كان متعارفًا في مجتمعاتنا إلى وقت قريب، حيث كانت البنت تساعد أمها وتكتسب الخبرة منها، وكان الولد يشارك في قضاء حاجات العائلة، أما التعامل مع الأبناء وكأنهم ضيوف شرف، لا يرتّبون حتى غرف نومهم، ولا يغسلون الكأس الذي يشربون منه الماء، فهذا ما قد يربيهم على الكسل، وضعف الجدّية والاهتمام.

ونسمع الآن عن بعض الفتيان والفتيات ممن يدخلون الحياة الزوجية، لكن تنقصهم الخبرة في إنجاز أدنى الخدمات المنزلية، مما يؤثر في بعض الأحيان على نجاح التجربة العائلية.

مكاسب التعاون

إن حالة التعاون والمشاركة بين أفراد العائلة في إدارة شؤونها، تصب في مصلحتهم جميعاً، وتحقق للأسرة مكاسب كبيرة:

أولًا: تنمي المشاعر الإيجابية، وتكرّس روح الشعور بالمسؤولية

(١) ميرزا حسين النوري الطبرسي. مستدرك الوسائل، ج ١٤، الطبعة الثالثة ١٩٩١م، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص٢٥٣، حديث ١٦٦٣٠.
(٢) الكافي، ج٥، ص٨٦، حديث١.

في نفوسهم، وهذا ينعكس على سلوكهم خارج المنزل، فيكونون أكثر تهيؤًا واستعدادًا للتعاون مع زملائهم في العمل، وأصدقائهم في الحياة، ويخلق لديهم توجهات العمل الخيري والتطوعي. وبعبارة أخرى تنمو عند أفراد هذه الأسرة الروح الغيرية، وحب مساعدة الآخرين، ومهارة التعاون والمشاركة.

ثانيًا: تشدّ أفراد الأسرة إلى بعضهم، وتقوّي انتمائهم العائلي، حيث يشعر كلّ واحد منهم بدوره وبحضوره، وأنه شريك في إنجازات العائلة، كما يتحمل نصيبه من كلّ فشل أو انتكاسة تمرّ بها، فوجوده أساس وفاعل داخل أسرته، وليس هامشيًّا لا يختلف حضوره عن غيابه.

ثالثًا: تصبح أمور العائلة أكثر انتظامًا، وتكون مهمّاتها أقرب إلى النجاح، كما ترتفع فيها درجة الحصانة والمناعة تجاه المشاكل والسلبيات التي قد تحدث في الحياة العائلية، لأسباب داخلية وخارجية.

نظام للحياة العائلية

من أجل أن تتحقق حالة التعاون والمشاركة بين أعضاء الأسرة، لا بدّ من تكريس نظام للحياة العائلية، وعدم ترك أمور المنزل للتقلبات المزاجية أو الممارسات العفوية والارتجالية.

وليس المقصود أن يكون هناك قانون مكتوب ونظام مفروض، وإنّما المطلوب تكريس واقع إيجابي في تسيير أمور العائلة ينبثق في الأصل من وعي الزوجين وإرادتهما، ليتربى عليه الأولاد، ويتشكّل من خلاله

سلوكهم في الحياة المنزلية.

ويمكننا الإشارة إلى بعض الجوانب كمعالم للنظام العائلي:

أولًا: التفكير المشترك في قضايا المنزل وأمور العائلة، ليشعر الجميع بالمسؤولية، ويشتركوا في اتخاذ القرارات، فحين يجلس الوالدان مع الأولاد ويتبادلون الرأي حول أيّ موضوع يرتبط بالشأن العائلي، كإعادة ترتيب المنزل، أو تنظيم المصروفات، أو الإعداد لرحلة سياحية، أو وضع برنامج غذائي، أو ما شابه، فإن ذلك يعزّز اهتمامهم بالأمر، ويستثير أفكارهم لتقديم مقترحات تنضج من خلال النقاش، وربما التفت أحد الأولاد لزاوية كانت غائبة عن نظر الوالدين.

كما أنّ المشاركة في صنع القرار يدفع الجميع للعمل على تطبيقه وإنجاحه، حيث يرى كلّ واحد منهم أنه قراره.

لذلك أكّد القرآن الكريم على المشاورة بين الزوجين في موضوع إنهاء فترة رضاع الولد يقول تعالى: ﴿... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا...﴾[سورة البقرة، الآية:٢٣٣].

ثانيًا: الحضور المنتظم: البيت هو مأوى أفراد العائلة، والمكان الذي يجمعهم، فمن الطبيعي أن تكون لكل فرد من العائلة التزامات ومهام خارج المنزل، لكن البيت هو قاعدة الانطلاق، وتكون الأوبة إليه، بحيث يجتمع أفراد الأسرة ويلتقون ويتفقد بعضهم بعضًا، عند أوقات الوجبات وقبيل النوم، وفي سائر الأوقات المناسبة لهم.

وهكذا كانت سيرة العائلة التقليدية في مجتمعنا، حيث يجتمع أفراد العائلة على سفرة الطعام، ولا يتغيّب أحدهم إلا لعذر معروف، كما لا يأوي الوالدان إلى فراشهما إلا بعد الاطمئنان على عودة الأبناء.

وإذا كان اختلاف طبيعة الحياة يفرض شيئًا من المرونة والتغيير، لكنه يجب أن يكون ضمن حدود متفق عليها، فقد تسللت بعض العادات السلبية إلى كثير من العوائل، كتأخر أفراد العائلة ليلًا خارج المنزل، حيث يسهر الأب مع أصدقائه إلى ساعة متأخرة، وتشارك الأم في بعض المناسبات الاجتماعية كأفراح الزواج إلى قرب الفجر، ويقضي الأولاد معظم الليالي وخاصة ليالي العطل مع شلتهم وأصدقائهم.

كما اختلّ نظام الوجبات التقليدية عند بعض العوائل، فلا تكاد العائلة تجتمع على وجبة طعام في اليوم، فهذا يذهب للمطعم، وذاك يتغدى مع شلته، والآخر يأتي متأخرًا ليأكل وحده.

إنّ ضعف الانتظام في الحضور للمنزل له آثار وانعكاسات سلبية يشير إليها الباحثون، وتتناولها الدراسات الميدانية عن جنوح الأحداث، وانحدار المستوى التعليمي، ومن يقعون في الانحرافات السلوكية.

ثالثًا: التزام النظام والترتيب لأشياء المنزل: فلكلّ شيء مكانه، وكلّ شيء يجب أن يكون في مكانه، ولا بدّ أن يتعلم ويتدرب كلّ فرد على إعادة ترتيب كلّ شيء يستخدمه في المنزل، بدءًا من سرير نومه، ووضع ما يحتاج للغسيل في المكان المخصص له، وترتيب أغراضه الشخصية.

إنّ ذلك هو ما يربي الفرد على التعامل المنظم مع الأشياء، ويبعده

عن سلوك التسيّب والفوضى، وألّا يكون اتّكاليًّا على الآخرين في شؤونه الخاصة به، كوالدته أو زوجته.

رابعًا: توزيع المهام وتقاسمها، بأن يتحمّل كلّ فرد إنجاز مهمة من المهام، ولو مرة في الأسبوع، كسقي الحديقة، أو تنظيف واجهة المنزل، أو تفقّد موقف السيارة.

إنّ النصوص الدينية توجّه الإنسان لبذل الجهد في خدمة عائلته، وأنّ ذلك مدعاة لرضا الله تعالى وثوابه، إضافة إلى نتائجه الإيجابية على الحياة.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»[1].

وعنه ﷺ: «أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلقًا. وخيارُكم خيارُكم لنسائهم»[2].

وعن حصين بن محصن الأنصاري أنّ عمته أتت رسول الله ﷺ فقال لها: أذات زوج أنتِ؟ قالت: نعم، قال: «انظري أين أنتِ منه، فإنما هو جنّتك ونارك»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «رحم الله عبدًا أحسن فيما بينه وبين زوجته»[4].

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، ص٥١٣، حديث ٢٨٥..
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٥١١، حديث ٢٨٤.
(٣) كنز العمال، ج١٦، ص٣٣٧، حديث٤٤٧٩٦.
(٤) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص١٧٠، حديث ٢٥٣٣٤.

لنعرف قدر زوجاتنا

من أهم أسباب سوء العلاقة بين الإنسان والآخرين الذين يتعامل معهم، أن تتضخم في نفسه مصالحه دون أن يُفكر في مصالح الآخرين، فيهتم بحقوقه ولا يلتفت إلى حقوق الآخرين. والحياة قائمةٌ على الحقوق المتقابلة، فكما أن لك حقوقًا، فإن لمن يتعامل معك حقوقًا، وعليك عند أي مشكلةٍ أو قضية أن تستحضر حقوقك وحقوق غيرك، أما إذا استحضرت حقوقك فقط وغفلت عن حقوق غيرك، فهذا يجعلك في موقفٍ ذهنيٍّ ونفسيٍّ يُبعدك عن الإنصاف والموضوعية، وبالتالي يحصل سوء العلاقة، وقد يحصل العدوان.

ومن أجلى موارد هذه الحالة العلاقات الزوجية. ويرتكز البحث على زاويةٍ محددةٍ من هذه العلاقة وهي علاقة الرجل بزوجته. هذه العلاقة التي لا تشبهها أية علاقةٍ أخرى في عالم الحياة الإنسانية، فهي علاقةٌ مميزة. لذلك حينما يتحدث الفقهاء عن عقد الزواج فإنهم يعتبرونه عقدًا مقدّسًا، فيه روح العبادة.

واللَّه جلّ شأنه في القرآن الكريم يتحدث عن هذه العلاقة بشكلٍ لا ترقى إليه أية علاقةٍ أخرى، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم، الآية: ٢١]. فالعلاقة الزوجية هي علاقة سكن، ويعني الاطمئنان والشعور بالأمن.

فكما أن الإنسان في بيته يشعر بالأمن والخصوصية، فكذلك في العلاقة الزوجية ينبغي أن يكون هذا الشعور موجودًا. والمودة تعني مشاعر الحب المتبادلة بين الزوجين، والرحمة تعني العطف والشفقة خاصة حينما يحتاج أحد الطرفين إليها من الآخر.

وفي آيةٍ أخرى يصف اللَّه تعالى هذه العلاقة بوصفٍ عجيب يستدعي التأمل والوقوف، يقول تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٧]، فالعلاقة الزوجية من حيث صلتها بالإنسان كصلة اللباس به. والإنسان يستفيد من اللباس في نواحٍ عدة:

أولًا: ستر العورة.

ثانيًا: الأناقة وجمال المظهر.

ثالثًا: الوقاية من تقلبات الظروف المناخية.

وذلك حال المرأة بالنسبة للرجل، والرجل بالنسبة للمرأة، حيث يُقدم كلٌّ منهما للآخر هذه الأدوار الثلاثة، ستر العورة من خلال إشباع الغريزة الجنسية بطريقةٍ لائقة، إذ بدونها قد يندفع الإنسان إلى علاقةٍ غير شرعية. والعلاقة الزوجية جمالٌ وكمالٌ للإنسان كاللباس تمامًا،

وهي تحمي الإنسان من مختلف التقلبات والظروف والمشاكل الحياتية والاجتماعية.

والتعبير في الآية الكريمة باللباس يُشير إلى اللصوق، حيث إن اللباس لاصق بجسد الإنسان، فكذلك حال العلاقة الزوجية، ملتصقة بالإنسان نفسيًّا وشعوريًّا وعمليًّا.

المعاشرة بالمعروف

يؤكد القرآن الكريم أن الشكل الوحيد المقبول للعلاقة الزوجية هو المعاشرة بالمعروف، ولا يمكن أن يقبل الشرع بعلاقةٍ زوجية لا تقوم على هذا الأساس.

وفي القرآن الكريم اثنا عشر موردًا يتحدث عن العلاقة الزوجية بتأكيد مبدأ المعروف، يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٩]، ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٢٩]، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٢٨]، إلى آخر تلك الموارد.

والآية الكريمة: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ تؤكد أن العلاقة الزوجية إمّا أن تكون قائمة على مبدأ العلاقة بالمعروف، وإلا فإن البديل: ﴿تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾. ولذلك أفتى الفقهاء بأن الزوج إذا لم يتعامل مع زوجته بالمعروف فإن لها أن تشكوه للحاكم الشرعي، ولمعالجة الموضوع تحصل ثلاث خطوات:

الأولى: يستدعي الحاكم الشرعي الزوج ويأمره بأن يتعامل مع

زوجته بالمعروف، ويزجره عن الإساءة لزوجته، فإذا لم يلتزم بكلام الحاكم الشرعي، تأتي الخطوة الثانية.

الثانية: يقوم الحاكم الشرعي بتأديبه وتعزيره، سجنًا أو ضربًا أو توبيخًا، أو أي إجراءٍ آخر حتى تتحقق العلاقة بالمعروف بين الزوج وزوجته. وإذا لم يؤدِّ هذا الإجراء هدفه، تأتي الخطوة الأخيرة.

الثالثة: من حقّ الزوجة أن تطلب الطلاق، فيأمر الحاكم الشرعي الزوج بالطلاق، فإذا لم يُطلّق الزوج طلّقها الحاكم الشرعي.

وفي توضيح هذه الحقيقة يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «إن المستفاد من مجموع هذه الآيات هو: المقابلة بين المعاشرة بالمعروف والتسريح بإحسان؛ هذا يقتضي أنه حين لا تتحقق الأولى (المعاشرة بالمعروف) من قبل الزوج لأيّ سبب من الأسباب (اختياري أو قهري ـ لأن الصيغة مطلقة من هذه الجهة) يتعين التسريح بإحسان. فإن الترديد جاء بكلمة (أو) التي مقتضاها هو خيار المكلف بين الأمرين. فلا وجه للقول بأن للزوج أن يعاشر بالمعروف أو بغير المعروف. وإذا أراد أن يفارق كان عليه أن يفارق بإحسان لأن هذا يتنافى مع كلمة (أو) في الآيات الكريمة وفي جميع موارد استعمالها. فالحاصل أن العلْقة الزوجية وجودًا مبنيةٌ على المعاشرة بالمعروف فقط، وانقطاعًامبنيةٌ على المفارقة بإحسان»[1].

(١) محمد مهدي شمس الدين، فساد العلاقة الزوجية، ولاية الحاكم الشرعي على الطلاق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، (بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر)، ص٤٨.

ما هو المعروف؟

المعروف هو ما تعارف عليه الناس، من الذوق المكتسب من لون حياتهم الاجتماعية. وكل عصرٍ وجيل له أعرافه وتقاليده. ومطلوبٌ من الرجل أن يتعامل مع زوجته ضمن العرف الشائع للتعامل.

والمعروف ما عرفه الشرع وقبله العقل.

والمعروف ما عرفه الناس الأسوياء في فطرتهم وميولهم.

وبالتالي، فإن أية مخالفة لهذا المبدأ تُعتبر إساءة للمرأة. قال السيد عبدالأعلى السبزواري في تفسيره:

«بيّن في هذه الآية المباركة أن الطريق الصحيح هو المعاشرة مع النساء بالمعروف، بأن تكون المخالطة والمصاحبة والعيش معهن بما هو المعروف بين أفراد المجتمع، ولم يعيّن سبحانه وتعالى كيفية ذلك، ليكون العرف الذي هو الشائع في كل عصر وزمان هو المعتمد في ذلك»[1].

وفي استفتاءٍ قُدّم للمرجع الراحل السيد الخوئي عن حكم رفع الصوت على الزوجة في مقام حدوث أمر لا يعجب الزوج هل يكون من باب أذية المؤمن المحرّمة؟ أجاب ﵀: «ما علم أنه يؤذيها لا يكون من المعاشرة بالمعروف»[2].

(١) عبدالأعلى الموسوي السبزواري. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج٧، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة أهل البيت ﷺ)، ص٣٤٩.
(٢) صراط النجاة ج٢، مسألة ١١٧٦، ص٣٧٩.

استيعاب الخطأ

عندما تصدر من الزوجة إساءة تجاه زوجها فإن النصوص الدينية تتوجه للرجل وتُخاطبه باعتباره ربًّا للأسرة، وقائدًا لهذه المؤسسة العائلية بأن يستوعب هذه الإساءة، ولذلك تؤكد النصوص أن من حقّ الزوجة على زوجها أن يغفر لها جهلها وخطأها. عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبداللَّه عليه السلام: ما حقّ المرأة على زوجها الذي إذا فعله كان محسنًا؟ قال: يشبعها ويكسوها وإن جهلت غفر لها، وقال أبو عبداللَّه عليه السلام: كانت امرأة عند أبي عليه السلام تؤذيه فيغفر لها[1].

وعن يونس بن عمّار قال: زوّجني أبو عبداللَّه عليه السلام جارية لابنه إسماعيل فقال: أحسن إليها، قلت: وما الإحسان؟ قال: أشبع بطنها واكسُ جنبها واغفر ذنبها[2].

والمرأة كالرجل، فكما أن الرجل معرض للخطأ فهي أيضًا معرضة للخطأ، وخاصة مع أعباء الحياة والظروف التي تعيشها.

في بعض الأحيان يكون الزوج حادًّا وقاسيًا فيما يتطلبه من زوجته، فلا يقبل منها خطأً، ويعتبر أن أيّ خطأٍ من الزوجة مبرر لمعاقبتها. وهذا غير صحيح، على الرجل أن يتفهم جيدًا حقوقه التي أقرّها الشرع على زوجته. إذ يُقرّ الشرع للزوج على زوجته حقين أساسين فقط:

الأول: حق الاستمتاع الجنسي، ما لم يكن مانع ديني أو صحي.

(١) وسائل الشيعة، حديث ٢٥٣٣٠.
(٢) المصدر نفسه. حديث ٢٥٣٣٢.

الثاني: أن لا تخرج من بيته إلا بإذنه، على تفصيلٍ في المسألة.

فإذا قصّرت المرأة وتجاوزت في هذين المجالين، تكون مخطئة، ولكن فيما عداها، كالطبخ وترتيب البيت وتربية الأولاد، فكل ذلك إحسان منها وتفضّل، جرى عليه العرف والتعامل، وتنال عليه الأجر والمثوبة من الله تعالى، فليتّقِ اللَّه بعض الأزواج في زوجاتهم، ولا يندفعون تجاه القسوة على المرأة نتيجة قصور فهمهم لحقوقهم.

ويجب أن يعلم الرجل أنه محاسبٌ أمام اللَّه، فقد يكون هناك شأنٌ معيّن من زوجتك لا يُعجبك، ولكن عليك أن تعرف أنها كإنسان لها خصائصها وطبائعها، ولم يخلقها اللَّه تعالى وفق مزاجك، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ»[1]. والفرك هو البغض.

وعلى الرجل أن ينظر إلى الجوانب الإيجابية لدى زوجته، ولا يُركّز على الجوانب السلبية فقط. والقرآن الكريم صريحٌ في هذا الجانب، يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[سورة النساء، الآية: ١٩]. وبعبارةٍ أخرى: على الرجل أن يتحمّل بعض ما يكرهه من زوجته، لأن هناك جوانب أخرى، يجعل اللَّه فيها خيرًا كثيرًا، ومن أبرزها ما يرتبط بالأولاد وتربيتهم، فانفعال الرجل وعدم تحمله بعض ما يكرهه من زوجته يؤثر سلبًا على تربية وتنشئة الأولاد. وفي المقابل إذا تحمل الرجل وصبر، فإن من مظاهر

(١) صحيح مسلم. حديث ١٤٦٩.

الخير الكثير أن الأولاد يتربون التربية الصالحة السليمة في أحضان أمهم وفي ظل الانسجام بين والديهم.

من ناحية أخرى، ليس الطلاق وحده وما يترتب عليه من غياب الأم يوجد مشكلة للأولاد، وإنما سوء المعاملة بين الرجل وزوجته له أكبر الأثر في تعقيد نفسية الأولاد، ويترك ذلك مشاعر مضطربة تجاه الأم والأب، فعلى الرجل أن يكظم غيظه، وأن لا يُظهر مشكلته مع زوجته أمام أولاده، تفاديًا لأي مضاعفات نفسية تحصل لهم.

وأخيرًا، فإن الإساءة للزوجة يؤثر على قدرتها في تربية أولادها، إذ من الضروري أن تحظى بالاحترام والتقدير من قبل أولادها، وهذا لا يتحقق إذا كان سلوك الزوج معها قاسيًا. والنصوص الدينية في هذا الإطار كثيرة جدًا، فقد ورد عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «من صبر على سوء خلق امرأته واحتسبه أعطاه اللَّه بكل مرة يصبر عليها من الثواب ما أعطى أيوب عليه السلام على بلائه»[1]، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «ومن صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر أعطاه اللَّه ثواب الشاكرين»[2]. وسوء الخلق الذي يقصده الحديث هو ما يُمثل سجيةً للزوجة، فضلًا عن أن يكون ذلك خطأً عارضًا.

(١) بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٦٧.
(٢) وسائل الشيعة. حديث ٢٥٣٤٨.

الزهراء القدوة في حياتها العائلية

لوجود الأنبياء والأئمة في حياة البشر وظيفتان رئيستان: أولها التبليغ ونشر القيم والمبادئ بين الناس، وثانيها تمثيل الأنموذج الأفضل لتطبيق هذه المبادئ والقيم.

ومما لا شك فيه أن وجود القيم والمبادئ بين الناس أمر مهم، لكن الناس بحاجة إلى من يطبق هذه المبادئ والقيم ليتأكدوا من أنها ممكنة التطبيق، وليست مجرد قيم مثالية خيالية. وخير أنموذج لهذه القيم هم من جاء بها أي الأنبياء والأئمة. لهذا فإن سيرة وحياة الأنبياء والأئمة حجة على الخلق. من هنا كان مطلوبًا من الناس أن يتمثلوا قول الأئمة، وأن يترسموا كذلك طريقتهم في الحياة الاجتماعية. إن هذا ما يؤكده القرآن الكريم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فالاقتداء مطلوب، وكذلك التأسي طبقًا للآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

يتصور بعض الناس خطأ أن ظروف حياة الرسل والأئمة تمتاز

بخصوصية فريدة، لا يترسمها ويهتدي بها سائر الناس. إن هذه الفكرة تُعدّ خطأً، ونقضًا لعلة إرسال الأنبياء والرسل وهي اقتداء الناس بهم. هناك خصوصيات يمتاز بها المعصومون، لكنها حالة استثنائية ومحدودة في حياتهم، ولو كانت كل سيرتهم فوق طاقتنا لما أمرنا بالاقتداء والتأسي بهم.

وحين نحتفي بذكرى هؤلاء الهداة، فلا بُدّ لنا أن نستحضر واقعهم الاجتماعي، وكيف مارسوا حياتهم لنقتدي بهم. ونقتبس قبسًا من أنوار سيرة سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام، حتى نستضيء به في حياتنا، وليكن هذا القبس من حياتها الزوجية، حتى نترسم طريقنا في هذا الجانب، ولنرى كيف كان التعامل بين الزوجين المباركين علي وفاطمة عليهما السلام.

يحدثنا أمير المؤمنين عليه السلام في رواية عن العلاقة الزوجية بينه وبين الزهراء عليها السلام فيبين لنا من خلالها كيف كان تعامله معها، وكيف كان تعاملها معه.

ورد عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام في حديثه عن حياته مع الصديقة الزهراء قال عليه السلام: «فو الله ما أغضبتها ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل، ولا أغضبتني ولا عصت لي أمرا ولقد كنت انظر إليها فتنكشف عني الهموم والإحزان»[1].

من جهة الزوج

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فوالله ما أغضبتها». ومقتضى ذلك أن

(١) بحار الأنوار. ج٤٣، ص١٣٤.

الإمام عليه السلام لم يقم بأيّ تصرف يغضب الزهراء عليها السلام لا قولًا ولا عملًا. فهل كان ذلك خاصًا بعليّ والزهراء لأنهما معصومان؟ إذًا لماذا يحدثنا أمير المؤمنين بشيء لا يمكن تطبيقه؟ إن الإمام إنما حدث بهذا حتى يسنّ لنا منهجًا في العلاقة الزوجية وهو أن يسعى الزوج لكسب رضا زوجته وأن يتجنب إغضابها ما استطاع.

ويقول عليه السلام في الرواية ذاتها: «ولا أكرهتها على أمر». أي لم يبادر عليه السلام إلى شيء يفرضه فرضًا على الزهراء عليها السلام ويجبرها عليه. وهنا يريد الإمام أن يسن قانون التوافق والاقتناع المتبادل بين الزوجين فيما إذا أراد أحد الطرفين شيئًا من الآخر، لا أن يكون على أساس الفرض والإجبار.

من جهة الزوجة

ثم يبيّن ما كان من جانب الزهراء عليها السلام تجاهه فيقول: «وما أغضبتني». فالزهراء أيضًا كانت حريصة وملتزمة عدم التلفظ بكلمة تؤذيه، أو تتصرف تصرفًا يثير شيئًا من الغضب في نفسه عليه السلام. وتتم حسن تبعلها بطاعته، فلا تخالفه في قول «ولا عصت لي أمرًا». وكانت عليها السلام تجلب السرور إلى نفسه، وتكشف همومه: «ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عني الهموم والأحزان».

هذه هي العلاقة السليمة التي ينبغي أن تكون بين الزوجين، علاقة التوافق والانسجام. وذلك بأن يحرص كل منهما على ألّا يغضب الآخر، ويسعى لكسب ودّه ورضاه، وأن الفروض المطروحة ينبغي أن تكون عن قناعة حتى يستجيب الطرف الآخر. ولا بُدّ من أخذ مشاعر وظروف كل

طرف بعين الاعتبار.

إن التوافق والانسجام بين الزوجين له أهمية كبيرة، فهو يجلب الراحة للإنسان، ويزيد فاعليته وعطاءه، كما أنه يساعد على إنتاج أبناء صالحين، حيث إن الأولاد الذين يتربون في عائلة منسجمة تكون نفوسهم سليمة، وسلوكهم سويًا، وما كثُرت المشاكل الاجتماعية والانحرافات إلا وكانت المشاكل العائلية وفساد الجو الأسري أحد أسبابها.

عوامل الانسجام

هناك عوامل تساعد على الانسجام والتوافق بين الزوجين، من أهمها:

أولاً: حسن اختيار الزوج

لا بُدّ أن يكون اختيار الزوجين أحدهما للآخر على أساس المعايير السليمة، بعيدًا عن الماديات والشكليات. فقد يكون جمال الزوجة عنصرًا مطلوبًا، ولكن لا ينبغي أن يكون هو أساس الاختيار. لا بُدّ أن يكون للالتزام السلوكي دور في الاختيار، تبعًا للرواية الشريفة «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه». إن من أخطر المشاكل التي يقع فيها الشباب الآن هو سيطرة العواطف في الاختيار، حيث يتعرف الشاب والشابة على بعضهما عبر وسائل الاتصال المتطورة والمختلفة، ويسمع هذا كلمة مثيرة، وتسمع تلك كلامًا عاطفيًا، وإذا بهما يقعان في فخ قد يكلف الخروج منه الكثير.

ثانيًا: الوعي بالحقوق الزوجية

إن وعي الزوجين بحقوقهما مدعاة لتأسيس علاقة قوية بينهما. وتكمن مشكلة الكثير من الأزواج أنهما يقيمان الشراكة الزوجية من دون تأهيل، فلا يعرف كلٌ منهما ما له وما عليه. إن الدراسات المعاصرة تشير إلى أن المجتمعات التي يلتزم أبناؤها بدورات تأهيلية قبل الزواج، تنخفض عندهم نسبة المشاكل العائلية. إن تأهيل الزوجين قبل الزواج أمر مهم، بل هو في غاية الضرورة، كيف لا، ونحن لا نعطي قائد السيارة رخصة القيادة إلا بعد إتمام التدريب، وكذلك بعض الوظائف المهنية، فهل تأسيس الشراكة الزوجية أقلّ شأنًا من ذلك؟!

إن في سيرة الزهراء عليها السلام مع أمير المؤمنين عليه السلام ما يشير إلى هذا الجانب، وهو معرفة الحقوق والواجبات المتبادلة. فقد ورد عن أبي عبدالله الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام: تقاضى علي وفاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيمن يقوم بخدمة البيت، والتقاضي يعني أنهما ذهبا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليحكم بينهما، ويبين لهما الأمر. وليس معنى التقاضي هنا أن الأمر قد سُبق بخلاف ونزاع، وإنما يريدان أن يحدّدا الحدود بينهما، فقضى على فاطمة بخدمة ما دون الباب، وقضى على علي بما خلفه. ويقول الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: كان أمير المؤمنين عليه السلام يحتطب ويستقي ويكنس. وكانت فاطمة عليها السلام تطحن وتعجن وتخبز[1].

وتشير نصوص كثيرة إلى تقاسم الخدمة بين الزوجين، ومن المعلوم

(١) الكافي. ج٥، ص٨٦.

أن الشرع لم يفرض الخدمة المنزلية على المرأة، ولكن حين يكون اتفاق على تقاسم الأدوار فإن ذلك يخلق بيئة أسرية راقية. وعن سلمان الفارسي قال: كانت فاطمة جالسة قدامها رحى تطحن بها الشعير، وعلى عمود الرحى دم سائل، والحسين في ناحية الدار يتضور من الجوع، فقلت: يا بنت رسول الله، دبرت كفاك، وهذه فضة، فقالت أوصاني رسول الله ﷺ أن تكون الخدمة لها يومًا، فكان أمس يوم خدمتها[1]. ومعروف أن فضة وهي من بلاد النوبة أهداها رسول الله ﷺ كجارية إلى فاطمة تعينها في خدمة البيت، وقال لها تقاسمي الخدمة معها، عليك يوم وعليها يوم. مع أنها ملك لها وليست مجرد خادمة، لكنها مع كل ذلك تتقاسم معها الخدمة! وهذا ما ينبغي أن تسير عليه نساؤنا في تعاملهن مع خادماتهن، فلا بُدّ للخادمة من وقت للراحة فهي بشر.

ثالثًا: التقوى والالتزام الديني

لا بُدّ لعامل التقوى أن يتجلى في التعامل بين الزوجين، فلا يصح أن نخرج رقي التعامل بين الزوجين من الدين، وكل يفعل كيف شاء.

إن بعض النساء يرغبن في العبادة والتقرب من الله، فيذهبن للحج والعمرة والزيارة ويؤدين كثيرًا من النوافل، وهو أمر حسن، لكن ينبغي ألّا يكون ذلك على حساب راحة الزوج واستقرار البيت الأسري. كما أن على الزوج في مقابل ذلك أن يراعي زوجته ومشاعرها، فلا يستغل قوته كرجل في كل شيء، فيرفع صوته في وجه زوجته بغير حق، فهذا

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٨.

محلّ إشكال وإثم. وكلما تجلت التقوى بين الزوجين كان الجو العائلي أنقى وأطيب. تقول الصديقة الزهراء عليها السلام لأمير المؤمنين عليه السلام أثناء وداعها له: يا ابن عم، ما عهدتني كاذبة ولا خائنة، ولا خالفتك منذ عاشرتني. فأجابها عليه السلام: معاذ الله، أنت أعلم بالله وأبرّ واتقى وأكرم وأشدّ خوفًا من الله من أن أوبخك بمخالفة[1].

رابعًا: روح الإيثار والتضحية

إذا ساد منطق الأنانية بين الزوجين تلاشت أجواء السعادة والهناء. وتتجلى قمة الأنانية عندما يريد الزوج من زوجته أن توفر له كل سبل الراحة، دون أن يعنيه أن تكون مرتاحة أم لا. وعلى غرار ذلك عندما تتمنى الزوجة أن يلبّي لها الزوج كل رغباتها، ولا يعنيها إن كان ذلك يشق عليه! لا ينبغي أن تسود هذه الروح الأنانية بين الزوجين، بل المطلوب أن يكون هناك إيثار وتضحية من قبلهما.

قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل من بني سعد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة؟ إنها كانت عندي وكانت من أحب أهله إليَّ ـ أي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وأنها استقت بالقربة حتى أثر في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها، فأصابها من ذلك ضرر شديد[2].

هكذا كانت عليها السلام تبذل ما بوسعها من أجل إسعاد زوجها وعائلتها. وفي

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص١١٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٨٢، حديث٥.

رواية تقول: دخل رسول الله ﷺ على عليٍّ فوجده هو وفاطمة يطحنان في الجاروش، فقال ﷺ: أيكما أعيى؟ فقال علي عليه السلام: فاطمة يا رسول الله ـ وهنا يتجلى جانب الإيثار ـ فقال ﷺ: قومي يا بنية، فقامت فجلس رسول الله ﷺ مكانها مع علي فواساه في طحن الحب[1]. بل كانت فاطمة عليها السلام تخشى أن تكلف عليًا عليه السلام ما لا طاقة له به، حتى في القوت، بل وتؤثره على نفسها وتطوي هي جائعة.

عن أبي سعيد الخدري قال: أصبح علي عليه السلام ذات يوم، فقال لفاطمة عليها السلام: يا فاطمة، هل عندك شئ تغذينيه، قالت: والذي أكرم أبي بالنبوة ما أصبح اليوم عندي شئ أغذيكه، وما كان عندي شئ منذ يومين إلا ما كنت أوثرك به على نفسي وعلى هذين ـ تعني الحسن والحسين ـ.

قال: فهلا كنت ذكرت ذلك لي، فأبغيكم شيئًا؟

قالت: إني لأستحي من الله أن أكلفك ما لا تقدر عليه، ولا تجده[2].

علينا أن نأخذ هذا الدرس في التوافق الزوجي، ونطبقه في حياتنا الأسرية. إن على الزوج ألّا يغضب زوجته، ولا يجور على حقوقها، فيطلب منها خدمة البيت وتربية الأولاد، وفي بعض الأحيان رعاية والديه، دون أن يكلف نفسه القيام بشيء من ذلك. ولاشك إن من البر أن يرعى الإنسان والديه، ولكن عليه أن يقوم بذلك بنفسه، لا أن يفرض ذلك على زوجته. نعم يستطيع أن يسترضيها في ذلك ويشجعها، وهي أيضًا عليها

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٥٠، حديث٤٧.
(٢) القاضي النعمان المغربي. شرح الأخبار، ج ٢، ص ٤٠١.

ألّا تفوت هذه الفرصة الثمينة من الثواب العظيم. كما أن على الزوجة أيضًا أن تراعي حقوق زوجها وأن تأخذ بعين الاعتبار ظروفه وإمكاناته. وإذا ما تحقق ذلك من قبل الزوجين فإن التوافق بينهما يتم، والاستقرار الأسري يكون قويًا ناجحًا.

رعاية الوالدين في الكبر

في المجال المادّي يبحث الإنسان عن فرص الربح والاستثمار، ويغامر من أجل الحصول على ما يحقق له أعلى العوائد. فمتى ما سمع عن فرصة استثمارية في مكان ما، أو مشروع ما، يحقق له ربحًا كبيرًا، فإنه يبادر على الفور لاقتناص الفرصة، حتى لو كلّفه ذلك عناءً وتعبًا، وهذا شيء معقول ومقبول.

لكن على الإنسان ألّا يُغفل جانب الاستثمار المعنوي، بل عليه أن يسعى لكسب ثوابه وآثاره. ومن خلال استعراض النصوص الدينية، فإنه ليس هناك فرصة للربح المعنوي، والاستثمار القيمي، أفضل من العناية بالوالدين، خاصة في فترة الكبر والعجز.

حينما يبلغ الوالدان أو أحدهما مرحلة الشيخوخة والعجز، فهذا يعني أن أولادهما أمام أفضل فرصة للاستثمار المعنوي. على الإنسان أن ينظر الى هذه الحالة أنها نعمة ساقها الله إليه، وتوفيق أتيح له، لا أن يتعامل معها ـ كما هو الحال عند البعض ـ على أنها بلاء ومحنة، قد تورّط

بها، حتى يصل الأمر به إلى أن يبدي تذمّره ويشكو حاله للناس! هذا سوء تقدير لفرصة استثمارية عظيمة.

بالطبع فإن أحدًا لا يتمنّى أن يكون والداه عاجزين، بل يتمنّى لهما الصحة والقوة طول حياتهما، أمّا إذا حصل ذلك، فهي فرصة عظيمة للربح والكسب المعنوي، ويتجلّى ذلك من خلال النقاط التالية:

تعزيز وتنّمية كمال الإنسان الأخلاقي

ورد عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «بِرّ الوالدين من أكرم الطباع»[1]. لا شيء يكشف عن تقدم وجدان الإنسان، وسموّه الأخلاقي، مثل عنايته بوالديه. وإذا كان الإنسان متقدّمًا في مجالات أخرى، بينما هو متأخر في هذا المجال، فإن تقدمه في المجالات الأخرى يُعَدّ تقدّمًا زائفًا.

تنقل كتب التراث العربي قصة رجل كان يحب زوجته حبًّا شديدًا. وذات يوم جاء لها بشيء ثمين يريد أن يظهر به حبه، وفي طريقه إلى غرفتها صادف أمه، فأخفى الشيء تحت عباءته. وحين جاء به إلى زوجته، وكانت قد لمحت فعله، سألته لماذا فعلت ذلك؟ فقال: حتى لا تراه أمّي فترغب فيه، وقد خصّصته لك. قالت: إذًا لست لي زوجًا! فتعجّب من أمرها! قالت: إذا كنت مع أمّك، ومع كلّ ما عانته من أجلك، من الحمل والرضاعة والولادة والتربية، ومع ذلك تتعامل معها بهذه النفسية، فكيف آمل أن تكون مخلصًا لي في الكبر، وأنا مهما أكون لن أحسن إليك مثل إحسان أمّك؟!

(١) بحار الأنوار. ج٧٤، ص٢١٢.

هذا هو التقويم السليم. فبرّ الوالدين يعكس نفسية الإنسان ومستوى أخلاقه مع الآخرين.

الثواب الجزيل من الله تعالى

الأعمال التي يقوم بها الإنسان المتديّن، من صلاة، وصوم، وحج، وصدقة، وزيارة، وغيرها، إنما يؤديها لنيل رضى الله واستحقاق مثوبته، إذا كان هذا غاية مناه، فليس هناك ثواب أعظم ولا أجزل عند الله من بِرّ الوالدين.

النصوص تدلّ على أفضلية وأولوية الاهتمام بالوالدين حتى على الجهاد في سبيل الله، رغم ما يعنيه من التضحية بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو وجئتك أستشيرك، فقال ﷺ: «فهل لك من أمّ؟» قال: نعم، قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها»[1].

من كان يريد ثواب الله ورضاه، فليس هناك مورد لنيل الثواب أعظم من رعاية الوالدين.

كسب التوفيق في الحياة

برّ الوالدين يؤهل الإنسان لتوفيق الله تعالى له في شؤون حياته، والنصوص تشير إلى أنه يطيل في العمر، ويوسع في الرزق، وهو سبب

(١) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير ابن كثير. ج٣، ص٣٨.

أساس لصلاح الذرية وبرّهم، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «بِرّوا آباءكم تبرّكم أبناءكم»[1].

نحتاج دائمًا إلى التذكير ببرّ الوالدين، خاصة في هذا العصر، حيث غلبة الاهتمامات المادية، وإهمال كثير من القيم الأخلاقية. فهناك من يجحد فضل والديه، ولا يبرّ بهما، وهناك من يتهرّب من تحمّل المسؤولية، ويوكلها إلى إخوته! وكأنه زاهد في نيل المثوبة، فلا ينافس في كسب أجرها. ورد عن عليّ عليه السلام: «لا يقولن أحدكم إن أحدًا أولى بفعل الخير مني فيكون والله كذلك»[2].

وفي بعض الحالات السلبية تجد بعض الأبناء عند كبر آبائهم ينقلونهم إلى دار العجزة وينسونهم. نعم إذا كان ذلك من أجل العلاج والرعاية الصحية، من غير إهمال من جانب الابن في التواصل، فلا بأس، أما إذا كان لغرض التهرب من الخدمة، فهذا تفويت لفرصة استثمارية قيمية كبيرة، وهو جحود وتجاوز لأعظم حق على الإنسان.

وقد نشرت الصحافة المحلية اليوم الجمعة ٢٣/ ٨/ ٢٠١٣م خبراً فظيعًا عن امرأة خمسينية أحضرها ابنها لقسم الإسعاف والطوارئ بمجمع الأمل «نساء» وتركها في صالة الانتظار، ولاحظتها العاملات في القسم وهي جالسة وحيدة، وعندما جئنها أخبرتهن بأن ابنها أحضرها وتركها في هذا المكان، وليس لديها ما يثبت هويتها، لكن بعض أعضاء الفريق المعالج تعرفوا عليها، حيث إنّ المريضة تعتبر من الحالات المزمنة

(١) الكافي. ج٥، ص٥٥٤.
(٢) نهج البلاغة. حكمة ٤٢٢.

المعروفة بالمجمع ومشخصة بحالة «فصام وجداني ثنائي القطب».

وعلى الفور شرعت ممرضات القسم بتقديم الرعاية التمريضية اللازمة، وتقديم العلاج لها، من واقع ملفها الطبي، بالرغم من رفض المريضة التنويم بقسم الملاحظة بالطوارئ، مرددة بأن ابنها سيأتي إليها لأخذها، وكانت في حالة قلق وتوتر مستمرّ خوفًا من عدم حضوره، وكانت تطلب من العاملات الاتصال بابنها لكي يحضر لأخذها، وهي تبكي وتتألم نفسيًّا بسبب تركه لها، وعدم سؤاله عنها، ولسان حالها يقول: «ما الذي حوّل قلب ابني عليَّ حجرًا؟» وبالفعل تم الاتصال بولدها، وبعد عدة محاولات ردّ عليهم، ووعدهم بالحضور بعد نهاية الاختبار في الفترة المسائية لكنه لم يحضر!

وفي صباح اليوم التالي لاحظت الممرضات تغيّرًا في حالة المريضة الصحية، وتم إعلان الشفرة الزرقاء (code blue) والبدء في عمل الإنعاش القلبي الرئوي لها دون أن تكون هناك استجابة، فتم الإعلان عن الوفاة من قبل الطبيب الاستشاري المختص نتيجة هبوط حادّ بالدورة الدموية والقلب[1].

التأكيد على برّ الوالدين

يؤكّد الله تعالى أهمية برّ الوالدين بقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾، أي أمر أمرًا محكمًا محسومًا. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾،

(١) جريدة عكاظ العدد ٤٤٥٠ الصادر بتاريخ الجمعة ١٦/ ١٠/ ١٤٣٤هـ الموافق ٢٣ أغسطس ٢٠١٣م.

فهو قرين توحيد الله بالعبادة، ورتبة ثانية بعده مباشرة، كما أنه تعالى لم يُحدّد مجالًا من مجالات الإحسان، بل جعله رصيدًا مفتوحًا لهما. ولا يقتصر الأمر على الوالدين المؤمنين فقط، بل حتى لو كانا مشركين يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾. ثم تؤكّد الآية الكريمة أهميّة مرحلة الكبر والضعف عند الوالدين وأهمية رعايتهما فيها: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي ما يؤذي النفس من إظهار التضجر، كما لا يجوز إظهار الغضب ورفع الصوت عليهما: ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾، عليك بلين القول، وأفضل الخطاب: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾، وإذا احتاجاك لرعاية خاصة نتيجة كبر السن فلا تتأفف من ذلك، بل تواضع في خدمتهما: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾.

وتستفيض النصوص الدينية حول تأكيد أهمية برّ الوالدين. حيث ورد عن رسول الله ﷺ: «يقال للعاق: اعمل ما شئت من الطاعة فاني لا أغفر لك»[1]، كما أن الشرك بالله سبحانه وتعالى لا يغفر، كذلك بر الوالدين وهو رتبة ثانية بعد التوحيد، فإن التهاون فيه لا يغتفر. ورد عن رسول الله ﷺ: «اثنان يعجلهما الله في الدنيا: البغي وعقوق الوالدين»[2]. وعنه ﷺ: «من أحزن والديه فقد عقّهما»[3]. هذا يلفت أنظارنا إلى أن العقوق درجات، فحتى الأثر النفسي السلبي الذي تتركه في قلب الوالدين يُعَدّ عقوقًا.

(١) كنز العمال، ج١٦، ص٤٧٦.

(٢) إسماعيل العجلوني، كشف الخفاء، ج١، طبعة ١٣٥١هـ (القاهرة: مكتبة القدسي)، ص٤٧.

(٣) كنز العمال، ج١٦، ص٤٧٨.

علينا أن نهتم بهذا الأمر، ونوجه أبناءنا إليه. فبعض أبنائنا الشباب يقومون بواجب زوجاتهم وأبنائهم، يلبون طلباتهم، يذهبون معهم إلى أماكن الترفيه، لكنهم لا يقومون بأدنى شيءٍ من هذا لوالديهم!

وعلينا أن نذكّر بأن برّ الوالدين لا ينقطع بوفاة الوالدين، بل يستمر ما بقي الإنسان، وذلك بالدعاء لهما، والصدقة وعمل الخير نيابة عنهما.

لتضمنوا بر أبنائكم

لا شيء أدعى لسعادة الإنسان من رؤيته أبنائه يغمرونه بالاهتمام والبرّ والاحترام. ومردّ ذلك إلى المحبة الفطرية التي تملأ نفس الوالدين تجاه الأبناء، فيكونان أكثر سعادة حين يلمسان التناغم في مستوى الحبّ من طرف الأبناء، سيّما وقد صرفا جلّ عمرهما في سبيل تربيتهم وتنشئتهم، فهما يتطلعان إلى رؤية ثمرة تعبهما، ونتيجة ما بذلا في تربيتهم ورعايتهم. وتتضاعف حاجة الوالدين للبر بهما حين يتقدم بهما العمر، ويكونان في موقع الحاجة للرعاية والعناية، فهما وإن كانا يرحّبان بأيٍّ قدرٍ من العناية المقدمة لهما من أيّ طرف، إلّا أنّهما سيكونان في موضع الامتنان للآخرين لتفضّلهم، بخلاف ما إذا جاءت الرعاية من الأبناء، حيث لا يثقل عليهما ذلك على أيٍّ نحوٍ من الأنحاء، وذلك من منطلق اعتبار رعاية الأبناء للوالدين أمر طبيعي، ومبعث سعادة، ولا يشبه الرعاية الآتية من أيّ جهة أخرى فيها إحسان وتفضل. وهذا هو مردّ تأكيد القرآن الكريم على رعاية الوالدين حين يبلغان مرحلة متقدمة من العمر، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ

لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

عقوق الأبناء أكبر صدمة

وكما أنّ برّ الأبناء بالوالدين يمثل أكبر سعادة، فإنّ عقوقهما يمثل أكبر صدمة لهما في الحياة، فقد يتحلّى المرء بقدرة أفضل تجاه تحمّل خسارة المال، أو الإصابة بالمرض، أو عداوة أيّ أحد، بخلاف مواجهة عقوق الأبناء، ذلك أنّ حالة العقوق تشعر الوالدين بغياب قيمة الحبّ، وانعدام المشاعر الإنسانية، التي يفترض أن يكون البرّ بالوالدين أهمّ مواقعها، فإذا ما فقدت في هذا الموقع، فعندها لا يعود لهذه المشاعر قيمة عند الإنسان. كما يدفع العقوق بالوالدين إلى معاينة ضياع جهدهما، وثمرة حيتهما، في تربية الأبناء، بعد أن كانا يعملان عليها طوال عمرهما، فلما جاء وقت قطاف الثمار، فإذا بهما يجابهان بعقوق الأبناء، فحقّ لهما عندها أن يشعرا بأنّهما خسرا كلّ شيء، وأنّ عمرهما ضاع هدرًا.

من هنا جاء التشديد في النصوص الدينية على بشاعة عقوق الوالدين، لما في ذلك من تأثير مدمّر على نفسيهما. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «يُقالُ لِلعاقِّ: اِعمَل ما شِئتَ مِنَ الطّاعَةِ فَإِنّي لا أغفِرُ لَكَ»[1]، إنّ عقوق الوالدين كالجريمة التي لا يعود معها أدنى قيمة لأيّ عبادة يتقرّب بها المرء لخالقه. وورد عنه ﷺ أنّه قال: «ثلاثةٌ مِنَ الذُّنوبِ تُعَجَّلُ عُقوبَتُها ولا تُؤَخَّرُ إلى الآخِرَةِ: عُقوقُ الوالِدَينِ...»[2]، إنّ عقوبة العاقّ بوالديه تعدّ من العقوبات العاجلة التي يرتطم بها العاقّ في الدنيا قبل الآخرة، بصرف

(١) بحار الأنوار، ج٧١، ص٨٠، حديث٨٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٧٥، حديث٥.

النظر عن شكل العقوبة المتوقعة وزمانها. وجاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ أَصْبَحَ مُسْخِطًا لِأَبَوَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إِلَى النَّارِ»[1].

كيف نضمن برّ أبنائنا؟

غير أنّ السؤال الأهمّ هنا، هو عن الكيفية التي يضمن من خلالها الإنسان تحقق السعادة، ببرّ أبنائه به، وأن يتجنب كارثة عقوقهم له؟

وللإجابة عن السؤال، نشير إلى أنّ هناك عوامل تساعد الإنسان على تجنّب كارثة عقوق الأبناء، ويأتي في طليعتها: التوجه بالدعاء لله سبحانه وتعالى، في طلب الصلاح للأبناء، كما ورد في الآية الكريمة على لسان أحد الأنبياء: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

والعامل الثاني: الاجتهاد في تربية الأبناء، فإذا أحسن الوالدان تربية أبنائهما، فإنّ ذلك سيكون من العوامل الرئيسة التي تجعل منهم أبناءً بررة، ذلك أنّ الولد الذي يحظى بتربية صالحة، سيكون في الأغلب صالحًا بارًّا بوالديه.

أما العامل الثالث لضمان برّ الأبناء، فهو أن يتوفر للأبناء النموذج والتربية العملية على برّ الوالدين. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بِرُّوا آباءكم تَبَرُّكُمْ أبناؤكم»[2]، وذلك بأن يجسّد الأبوان مفهوم برّ الوالدين مع أبويهما، فإذا ظهر هذا السلوك أمام الأبناء، فسيمثل ذلك أعظم درس وتجسيد عملي لمفهوم البر بالوالدين، ما سيحفّز الأبناء

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٠٢.
(٢) الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، ج٤، كتاب البر والصلة، ص١٥٤.

لتمثل ذات السلوك مع والديهم. فالأبناء الذين يعيشون في ظلّ أبوين بارّين بأبويهما، يخدمانهما ويحترمانهما، فإن ذلك سيكون أكبر دافع للأبناء للاقتداء بهما، والسير على نهجهما. في مقابل ذلك، إذا رأى الأبناء والديهما يتعاملان على نحو جافٍ خشن مع أبويهما ـ أي أجداد الأبناء ـ فإنّ الأبناء سيتمثلون مستقبلًا ذات السلوك مع أبويهما المباشرين على الأغلب، إذ سيكون هذا السلوك الجافّ مع الوالدين أمرًا عاديًّا، والخشونة معهما شأنًا غير مستقبح ولا مستبشع في نظرهم.

إضافة إلى أنّ في البرّ بالوالدين مكافأة إلهية. فمتى ما كان الإنسان بارًّا بوالديه، فإنّ الله سبحانه يكافئه بأن يجعل أبناءه بارّين به، وقد يكون ذلك استجابة لدعاء الوالدين بأن يرزق أبناءهم البارّين أولادًا بارّين بهم، فدعاء الوالدين في حقّ الولد مستجاب، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «ثَلاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ لا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ»[1]. إنّ في دعوة الوالدين نعمة كبيرة لا يدركها إلّا من يفهمون قيمتها، لذلك تجدهم يبدؤون نهارهم باستمطار دعاء الوالدين، من خلال زيارتهما، والسلام عليهما، وتقبيل رأسيهما، وخدمتهما، والإحسان لهما، استمطارًا لدعوة صالحة تكون سببًا للتوفيق والخير والرحمة.

تعزيز قيمة برّ الوالدين

إنّ مجتمعاتنا أحوج ما تكون لتعزيز قيمة البر بالوالدين. خاصة

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب دعوة الوالد ودعوة المظلوم، حديث٣٨٦٢.

في العصر الراهن الذي تشعبت فيه انشغالات الأبناء، وطغت عليهم فيه الاهتمامات الذاتية، حتى أنّ بعضهم ربما لم يعد يرى أبويه مرة في الأسبوع، خاصة إذا كان يعيش في بيت منفصل عنهما، وربما ركن بعض الأبناء إلى التواكل بعضهم على بعض في قضاء أمور الوالدين، حتى تتعطّل أمورهما نتيجة ذلك التواكل، في حين ينبغي للأبناء التنافس في خدمة الأبوين وتلبية احتياجاتهما.

ولأننا في زمن ينبغي فيه التأكيد مجدّدًا على هذه القيمة، فإننا نقدّر عاليًا المبادرة الإنسانية الجميلة «حملة البرّ بالوالدين» التي انطلقت في منطقتنا في السنوات الأخيرة، إذ من الرائع جدًّا أن تنبثق في أوساطنا مثل هذه المبادرات المعزّزة للقيم الإنسانية، وقيم مكارم الأخلاق. وقد أخذت هذه الحملة السنوية المصادفة ليوم ٢١ مارس مكانها، بالتزامن مع مناسبة اليوم العالمي للأم.

إنّ على مجتمعنا إظهار أكبر قدرٍ من التفاعل مع البرامج والفعاليات المصاحبة لهذه الحملة الإنسانية الرائدة، التي تستمرّ أسبوعًا، لما فيها من الإحياء للمشاعر الإيجابية، التي ينبغي أن نعزّزها في ذاكرة أبنائنا ومشاعرهم.

خطر التأليب في النزاعات العائلية

علاقات الإنسان مع محيطه الاجتماعي أحد أهم العوامل المؤثرة في صحته النفسية واستقراره الداخلي، فإذا كانت علاقاته ضمن عائلته ومع جيرانه وزملائه ومن يتعامل معهم، تسير بشكل إيجابي، في حالة من الرضا المتبادل، فذلك يجعله أقرب إلى السعادة والارتياح، أما إذا اختلت وتأزمت علاقاته مع القريبين منه، فإن ذلك يسبب له الألم والاضطراب النفسي، وكلما كانت الدائرة أقرب كان تأثيرها على النفس أكبر.

ورد عن الإمام علي عليه السلام: «عداوة الأقارب أمضّ من لسع العقارب»[1].

وأفضل دعم يُقدم للإنسان، مساعدته في معالجة اختلال علاقاته، خاصة مع الدائرة القريبة منه.

ولذلك وردت الآيات والروايات حول فضل إصلاح ذات البين، يقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، ويقول تعالى

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٣١.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

وورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال في وصيته الأخيرة لولديه الحسنين عليهما السلام: «أُوصِيكُمَا وجَمِيعَ وَلَدِي وأَهْلِي ومَنْ بَلَغَه كِتَابِي، بِتَقْوَى اللَّه ونَظْمِ أَمْرِكُمْ وصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ،فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صلى الله عليه وآله يَقُولُ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ والصِّيَامِ»(١).

وجاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اَللَّهُ إِصْلَاحٌ بَيْنَ اَلنَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَ تَقَارُبٌ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»(٢).

إن إصلاح ذات البين يقتضي تقديم النصح لكلا الطرفين، بالمرونة تجاه الطرف الآخر، قد يكون هناك خطأ من أحد الطرفين تجاه الآخر، وقد تكون هناك أخطاء متبادلة، فعلى المصلح أن يشجع الطرفين على المرونة والتسامح والمبادرة تجاه الطرف الآخر.

خطر التأليب

من أسباب تعمق الخلاف، حالة التأليب والتحريض، حيث يندفع البعض عاطفياً نحو أحد طرفي النزاع، ليقوّي موقفه مقابل الآخر لأنه قريبه أو صديقه، ويؤلبه على الطرف الآخر ويبالغ في إدانته أمامه، وهذا خطأ جسيم، خاصة إذا كان هذا الطرف يتحمل القسط الأكبر من المسؤولية!!

إن الدفع نحو التشدّد في الخلافات داخل الأسر والعوائل يضر بالجميع، ومن يظن أنه يقدم لقريبه أو صديقه خدمة بدفعه إلى التشدّد،

(١) نهج البلاغة، وصية: ٤٧.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٨، ص٤٣٩، حديث٢٤٠٠١.

فهو في الحقيقة يضره، ومن يسعى في مصلحة قريبه عليه أن يشجعه على الصلح والمرونة، ويمنعه من التشدّد، وهذا ما يعبر عنه الحديث النبوي:

عن رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أخاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا فقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أنْصُرُهُ إذا كانَ مَظْلُومًا، أفَرَأَيْتَ إذا كانَ ظالِمًا كيفَ أنْصُرُهُ؟ قالَ: تَحْجُزُهُ، أوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ»[1].

إذا كان صاحبك في موقف خطأ، فعليك أن تسعى لمنعه وأن تحجزه عن الخطأ، لا أن تقوّي موقفه، فيتصلب في جانب الخطأ!

إن بعض العوائل تخطأ كثيراً في مثل هذه الحالات، حين تحدث مشكلة بين الولد وزوجته، تندفع العائلة ـ تحت عنوان الدفاع عن ابنهم ـ لتشجعه على التشدد في موقفه تجاه زوجته.

وكذلك عائلة الزوجة، يدفعونها لعدم المرونة أو التنازل أمام زوجها.

وكل ذلك ليس في مصلحة أيٍّ من الطرفين، ولا في صالح كيانهما العائلي، بل هذه الممارسات سبب لهدم الأسرة.

ويحصل في بعض الأحيان أن يميل الزوجان إلى الصلح، لكن العوائل يدفعون نحو التشدد، وقد وجدنا في كثير من حالات الخلاف العائلي، نتحدث مع الزوجة فتقبل العودة إلى حياتها الزوجية، لكنها تقول إن أبي يرفض الرجوع، أو أن أُمي تمنعني من التواصل مع زوجي!

والنتيجة هي تصدع كيان الأسرة!

(١) صحيح البخاري، ج٤، ص٣٢٣، حديث٦٩٥٢.

والأمر كذلك بالنسبة لبعض الأصدقاء، حين يفتقدون الوعي والحكمة، ويندفعون بعنوان التعاطف مع صديقهم ويتصورون أنهم يقفون إلى جانبه، فيشجعونه على التشدد والتصلب في الموقف تجاه زوجته، وهم بذلك يضرونه ويهدمون أسرته!

وكذلك الأمر بالنسبة لصديقات الزوجة، وتتحدث بعض التقارير حول إقامة حفلات للطلاق، وتشجيع بعض النساء لصديقاتهن على التخلص من أزواجهن وعدم البقاء تحت هيمنة الرجل وسيطرته!

وقد نشرت الجرائد عن بعض هذه الحفلات، حيث تعلن المرأة ابتهاجها وتحررها من هيمنة زوجها!

صحيح أن هناك حالات يكون الزوج فيها عدوانياً مسيئاً معتدياً على زوجته، لكن الابتهاج بالطلاق يخالف النصوص الدينية كالحديث الوارد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: « إن الله عز وجل يحب البيت الذي فيه العرس، ويبغض البيت، الذي فيه الطلاق، وما من شئ أبغض إلى الله عز وجل من الطلاق»[1]، وفي حديث عنه عليه السلام أيضًا: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش»[2].

وفي بعض الأحيان تشجع الفتيات بعضهن بعضاً على التشدد مع الزوج، ومطالبته بتنفيذ رغباتهن، ضمن حالة الاسترسال في الحديث عن الشؤون الأسرية والزوجية، فتدفع الواحدة منهن صديقتها إلى مطالبة

(١) الكافي. ج ٦، ص ٥٤، حديث٣.
(٢) وسائل الشيعة، ج٢٢، ص٨، حديث٢٧٨٨٠.

زوجها بإدخال تحسينات على الشقة، أو شراء أثاث جديد، أو شراء سيارة جديدة، أو السفر إلى بلد معين، ضمن مستوى ومواصفات قد لا يتمكن الزوج من تحقيقها!

إن مثل هذا التدخل يفتح جروحاً في العلاقات العائلية ويهدم كيان الأسر!

إذا كان الصديق يحب صديقه، والفتاة تحب صديقتها، والعائلة تسعى لسعادة أبنائها، عليهم أن يأخذوا منحىً إيجابياً في التشجيع على التسامح والتوافق والتراضي، وما يحدث خلاف ذلك هو مما يسخط الله سبحانه ويغضبه.

البعض قد يعرض مشكلته على من حوله ويتوقع منهم أن يقفوا إلى جانبه، يطرح عليك مشكلته مع زوجته ويتوقع منك أن تصطف معه فإذا نصحته، لا يرضى ويرى أنك خذلته!

لكنها النصرة الحقيقية، فالإنسان في مثل هذه المواقف أحوج ما يكون إلى النصيحة، وليس إلى التأليب والتحريض، سواء في الخلاف العائلي أو الاجتماعي.

يحصل في بعض الأحيان أن موظفاً يعرض مشكلة بينه وبين مديره أو زميله في العمل، فيبادر أصدقاؤه إلى دعوته للتحلي باللين لاستيعاب المشكلة وبذلك يساعدونه في حل مشكلته.

وفي حالة أخرى قد يعبئونه ضد مديره في العمل، ويدعونه إلى عدم التنازل عن حقه كما يتصورون، وتكون نتيجة ذلك التأليب سيئة، فتزداد

المشكلة، وقد يخسر وظيفته!

حينما يكون الإنسان قريباً من أحد أطراف الخلاف أو النزاع، عليه أن يتخذ موقفاً مسؤولاً، يستحضر الله سبحانه نصب عينه، ويسأل نفسه: ماذا يريد الله مني في هذا الموقف؟

إلى ماذا تدعو آيات القرآن والأحاديث الشريفة؟

إنها الدعوة إلى الاستيعاب والمرونة بغض النظر عن علاقتك مع هذا الشخص.

إذا كان قريباً لك وعزيزاً عليك، فعليك أن تفكر في مصلحته بالنصح، وعلى الإنسان أن يتقبل نصح الناصحين.

البعض لا يقبل النصيحة ويريدك أن تكون معه متشدداً، تساعده على التشدّد، بينما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مَرارَةُ النُّصْحِ أَنْفَعُ مِنْ حَلاوَةِ الْغَشِّ»(١).

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَنْ أَمَرَكَ بِإِصْلاحِ نَفْسِكَ فَهُوَ أَحَقُّ مَنْ تُطيعُهُ»(٢).

وقال عليه السلام فيما روي عنه: «اِسْمَعُوا (اِقْبَلُوا) النَّصِيْحَةَ مِمّنْ أَهْداها إلَيْكُمْ»(٣).

حين ينصحك صديقك، وإن كان في نصحه مرارة، فهو أنفع لك من

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٨٩.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٦٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥١.

حلاوة الغش، حين يبدو متعاطفاً معك، لكنه يضرك ولا ينفعك.

وورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «اتَّبِعْ مَنْ يُبْكِيكَ وَهُوَ لَكَ نَاصِحٌ، وَلَاتَتَّبِعْ مَنْ يُضْحِكُكَ وَهُوَ لَكَ غَاشٌّ»[1].

إذا وجدت شخصين، أحدهما يدعوك إلى التشدد والآخر ينصحك بالمرونة، عليك أن تتبع الثاني، لأن ذلك ينسجم مع تعاليم الدين وهو خير لك في علاقتك مع الطرف الآخر.

الإنسان ـ عادة ـ يبرئ نفسه ويلقي باللائمة على غيره، بينما قد يكون لديه نقطة ضعف، أو يفتقد القدرة على استيعاب خطأ الطرف الآخر.

إن الله تعالى يأمرنا أن نكون منصفين في مواقفنا تجاه الآخرين، فهو أقرب إلى العدل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[سورة النساء، الآية: ١٣٥].

وكون هذا الشاب ابنك، أو الفتاة ابنتك لا ينبغي أن يدعوك إلى مخالفة الإنصاف والعدل، فتؤلب وتحرض، ففي ذلك مخالفة لأوامر الله سبحانه وتعالى، وإضرار بمصالح الآخرين.

(١) الكافي، ج٤، ص٦٨٥، حديث٢.

الفصل الرابع

التربية الأخلاقية

أجواء العاطفة والحنان في الأسرة

تمثل الأسرة الحاضنة الأولى والأهمّ التي ينشأ فيها الإنسان. حيث يفتح عينه على هذه الحياة، ويتشكل وعيه بها من خلال العائلة، فوسط أجواء الأسرة يتعلم الإنسان النطق ولغة التعامل، ومنها يكتسب العادات والأعراف والتقاليد، فرعاية الأسرة للطفل لا تساهم في نموه جسميًّا عبر توفير الغذاء وحسب، إنما إلى جانب نمو الجسم تنمو المشاعر والأحاسيس، وتزرع القيم والتوجّهات. لذلك تؤكد الدراسات الاجتماعية والنفسية أهمية دور الأسرة في صناعة شخصية الإنسان، فالإنسان الصالح غالبًا ما تصنعه أجواء الأسرة الصالحة، ولا عبرة بالاستثناءات في هذا السياق. من هنا فقد اهتمت مختلف الأديان والثقافات المعنية بالقيم النبيلة، بإصلاح وتحصين الأجواء الأسرية، وصناعة أجواء عائلية صالحة لنشأة وتربية الأطفال.

الإشباع العاطفي

هنالك بعدان رئيسان يحكمان صلاح الأجواء الأسرية. يتمثل البعد

الأول في مستوى الحنان والاهتمام العاطفي الذي تغدقه الأسرة على أبنائها، فكلّما كان مستوى الحنان والعاطفة داخل الأسرة عاليًا، كان أفراد الأسرة أقرب إلى الصلاح، وهذا يشمل جميع أفراد الأسرة دون استثناء، بما في ذلك الأب نفسه، فالأب الذي يعيش في أسرة تغمره بالمحبة والاحترام، من قبل الزوجة والأبناء، سيكون أقرب إلى الراحة والاستقرار. ويجري الأمر ذاته مع الزوجة أيضًا، فالزوجة التي تعيش في أجواء تغمرها بالعطف والمحبة، تكون بطبيعة الحال أقرب إلى الصلاح والاستقامة، وكذلك الأمر مع الأولاد.

من هنا جاء تأكيد هذا الجانب، فالعلاقة داخل الأسرة يجب ألّا تكون أشبه بالعلاقة بين سكنة الفنادق وروّاد المطاعم، يتحولون لمجرد أفراد يجمعهم مبنى واحد، يوفر لهم السكن والطعام وحسب، وسط غياب تام لأجواء العطف والمحبة.

ولعلّ هذا هو ما يفسّر سبب بقاء الأولاد لفترات طويلة خارج المنزل، بحثًا عن الراحة وقضاء الأوقات مع الأصدقاء، فلا يعود للمنزل إلّا في أوقات النوم، ونادرًا يشارك الأسرة على مائدة الطعام. إنّ هذا يكشف عن أجواء خلل تنتاب الأسرة، التي ينبغي أن تكون أجواء جاذبة مستقطبة لجميع أفرادها، فالرجل يعود للمنزل ليشعر بالراحة والاطمئنان، وكذلك الحال مع المرأة والأولاد، فأجواء العطف والحنان مسألة مهمّة ينبغي أن يهتم بها الجميع داخل الأسرة.

وهناك نصوص دينية كثيرة تؤكّد أهمية إشاعة الحنان وترسيخ البعد العاطفي ضمن أجواء الأسرة. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نظر

الوالد إلى ولده حبًّا له عبادة»[1]، أي إنّ مجرد النظر إلى الابن بمحبة يُعَدّ عبادة، تشبه إقامة الصلاة والصيام وأداء الحج وقراءة القرآن. وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «من قبّل ولده كتب الله له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيامة»[2]، وجاء عنه ﷺ أنه قال: «رحم الله عبدًا أعان ولده على برّه بالإحسان إليه والتألف له وتعليمه وتأديبه»، إنّ من واجب المرء أن يتألف ولده ويجتذبه نحوه، إضافة إلى تعليمه وتأديبه، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الله ليرحم العبد لشدّة حبّه لولده»[3]، إلى غير ذلك من النصوص الدينية الكثيرة، التي تؤكّد ضرورة وأهمية وجود أجواء الحبّ والحنان داخل المنزل وضمن كنف الأسرة.

التربية والتوجيه الأخلاقي

أما البعد الثاني الذي ينبغي أن يحكم الأسرة فهو بُعْدُ التوجيه الأخلاقي والتربوي. وبإلقاء نظرة على الماضي، نجد أن الآباء والأمهات كانوا معنيين بالقدر الذي يتسنّى لهم، ببث القيم والأخلاق في نفوس الأولاد، فلم يكن آباؤنا وأجدادنا يجيدون القراءة والكتابة، وإنما كانوا يتداولون معظم معارفهم شفاهية من خلال سرد القصص والأساطير، فكان الأطفال ينامون على وقع حكايات جدّاتهم وأمّهاتهم، وقد لعبت هذه القصص والأحاديث دورًا في صناعة شخصية الأولاد وتنمية أجواء العاطفة في نفوسهم.

(١) مستدرك الوسائل، ج١٥، ص١٧٠، حديث٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٧، ص٣٠٤، حديث٧٤.
(٣) الكافي، ج٦، ص٥٠، حديث٥.

ولعلّ إحدى أبرز مشاكل الأسرة في العصر الحديث، أنها باتت أمام تحدّيات كبيرة، أبرزها تضخم الجانب الأناني في نفوس الأفراد، فالأب مهتم بشدّة بتلبية رغباته، والأم مشغولة بمصالحها، وعلاوة على الروح الأنانية يأتي تشعّب الاهتمامات وظروف الحياة المعقّدة، وهذه كلها باتت لا تصبّ في صالح الأسرة المعاصرة؛ لانعكاس ذلك على قلة وضعف اهتمام الأسرة بأفرادها قياسًا على الماضي.

لذلك بدأنا نرى انتشار بعض السلوكيات السلبية في صفوف أبناء مجتمعاتنا المحافظة، من ارتفاع معدّل الجريمة والانحرافات، وهذه نُذُرُ سوء ومؤشّرات خطر، ينبغي الوقوف عندها ومعالجتها، وأوّل سبل العلاج هو التوجه نحو الأسرة، وإعادة الاهتمام بتنمية أجواء الحنان داخلها، حتى ينعكس ذلك على جميع أفرادها. وإلّا فما الذي يدفع المرأة المتزوجة للشكوى من الجفاف العاطفي لولا انشغال زوجها عنها بمجالسة رفقائه وتلبية رغباته، ما يهدّد بخلق أرضية للانحراف داخل الأسرة، ويؤثر على تربية الأبناء.

الخدمات والقوانين المساعدة

لقد باتت مجتمعاتنا في حاجة ماسّة لسنّ القوانين المساعدة في مجال الأسرة، فكلّما خففت أعباء الحياة عن الأسرة، من حيث كفاية المؤونة والسكن، فسينعكس ذلك إيجابًا، لناحية تماسك الأسرة، وقلة المشاكل، وانخفاض معدّل الانحرافات. وكذلك الحال مع القوانين المساعدة، ذلك أنه بالرغم من الالتزام الديني المتعاظم في بلادنا، إلّا أنّ الحاجة تبقى ماسّة لسنّ قوانين تساعد الأسرة على القيام بدورها.

ومن تلك القوانين المطلوبة ما يتعلّق بلمّ شمل الأسر العاملة، فمن غير المقبول بقاء الأم بعيدة ولفترات طويلة عن عائلتها وأولادها لأسباب العمل، هذه المعاناة الكبيرة طالما رزح تحتها الكثير من المعلمات والممرضات العاملات في أماكن نائية بعيدة، لماذا لا تعالج هذه المشكلة جذريًّا، لما لها من آثار سلبية؟

وكذلك الحال مع معدّل ساعات دوام المرأة العاملة، ذلك أنه كلّما كان دوام المرأة ميسّرًا انعكس ذلك على أجواء الأسرة وتربية الأبناء، وغير ذلك من متواليات سلبية، وإلّا ما المتوقع عائليًّا من امرأة تصل لمنزلها مرهقة بعد ساعات عمل طويلة، ودوام لفترتين في اليوم الواحد في حالات كثيرة!، هذه المرأة لن يتسنّى لها بالتأكيد إيلاء عائلتها وأطفالها وزوجها الاهتمام المناسب. وأيُّ جيلٍ صالح نترقّب أن تساهم هذه المرأة في صناعته إذا لم نشرع القوانين المساعدة لها للتفرغ لعائلتها؟.

وعلى هذا الصعيد ينبغي النظر اجتماعيًّا لقرار إغلاق المحلات التجارية عند التاسعة مساء. ولسنا في هذا المقام بصدد مناقشة تأثيرات القرار اقتصاديًّا، غير أنه من الوجهة الاجتماعية سينعكس إغلاق المحلات التجارية عند التاسعة مساء على عودة المتسوقين وأفراد الأسر إلى منازلهم باكرًا، ومن المعلوم أن أغلب دول العالم تُغلق المحلات التجارية عندهم في وقت مبكر من المساء، فبعض الدول تُغلق المحلات التجارية فيها عند الساعة السادسة، وفي دول أخرى عند الثامنة، أو عند العاشرة في دول قليلة، وثمة نقاش طويل حول فوائد هذا الأمر اجتماعيًّا وتربويًّا لجهة اجتماع أفراد العائلة بعد يوم طويل.

نحن بحاجة ماسّة إلى تشجيع الناس على الاجتماع إلى بعضهم بعضًا ضمن أجواء أسرية في منازلهم.

أعراف تضرّ بالأسرة

ومن الأمور التي تحتاج إلى ترشيد على هذا الصّعيد، هي تلك الأعراف والتقاليد، المرتبطة بالأعراس مثلًا، وخاصة في جانبها النسائي، حيث لا تنتهي مراسيم الزواج عند النساء إلّا عند وجه الفجر! ولنا أن نتصور تأثير بقاء الزوجة خارج المنزل طوال الليل، وعلى نحو متكرر بتكرر مناسبات الزواج في العائلة والأسر الصديقة، وتبعًا لذلك تركها زوجها، وبقاء أطفالها وحدهم أو برفقة الخادمات، فما الداعي لمثل هذه العادة السيئة؟! ومن الذي ألزمنا بها؟! وما الذي يمنعنا من التمرد عليها ووضع حدٍّ لها؟! إذْ من الخطأ الفادح أن تعتاد النساء على هذا السلوك لمجرد الخضوع لحكم العادات الاجتماعية المستحدثة.

وكذلك الحال بالنسبة للشباب الذين درجوا على السّهر في المجالس والديوانيات والاستراحات حتى أوقات متأخرة من الليل، كما لو أنهم بلا زوجات ولا أطفال لهم حقّ عليهم.

علينا أن نتجاوز العادات السلبية، وأن نهتم بإصلاح الأجواء الأسرية، إذا أردنا أن نربي جيلًا صالحًا. وذلك من خلال البعدين الآنفين؛ المتمثلين في توفير العاطفة والحنان، وتوفير التوجيه الأخلاقي والقيمي داخل الأسرة.

الاحتشام داخل البيت

الغريزة الجنسية من أخطر وأشرس الغرائز عند الإنسان، وباستيقاظها يبدأ امتحان الإنسان وتكليفه الإلهي، حين يكون بالغًا. والغريزة الجنسية هي حاجة للإنسان، إلا أنها تختلف عن كثير من الحاجات الأخرى التي تفرض نفسها على كلّ حال، ولا ربط لها في الغالب بالأجواء والظروف الخارجية، فالجوع والعطش حاجة طبيعية يشعر بها الإنسان في كلّ ظرف.

أما الغريزة الجنسية، فإنها تتأثر إلى حدٍّ كبير بالأجواء التي يعيشها الإنسان، فإذا عاش في أجواء العفة والاحتشام، فإن ضغط هذه الغريزة يكون أقلّ، وتكون أكثر انقيادًا لإرادة الإنسان. أما إذا عاش في أجواء الابتذال وعدم مراعاة ضوابط العفة والحشمة، فإن هذه الغريزة تكون مسيطرة على الإنسان وضاغطة عليه.

كان الناس في الماضي يعيشون حالة محافظة، وخاصّة في مجتمعاتنا الإسلامية، لذلك كانت السيطرة على هذه الغريزة أمكن. ولا نقول إن

أبناء تلك المجتمعات كانوا ملائكة، ففي كل مجتمع هناك انحرافات ومشاكل، إلا أن الوضع العام كان أفضل.

ونحن الآن نعيش في عصر كثرت فيه المثيرات، والأجواء التي تُحرّض في الإنسان شهوته الجنسية، وقد أرادت الشرائع الدينية أن يمارس الإنسان هذه الغريزة في قناتها المشروعة، عبر الزواج. إلا أن واقع هذا العصر، وبسيطرة الحضارة المادية، والدوافع التجارية، والتوجّهات الشهوانية، أُطلق العنان للغريزة الجنسية، فأصبحت الأجواء تعجّ إغراءً وإغواءً وإثارة. لهذا فإن امتحان الإنسان في هذا العصر أكبر مما كان عليه في الماضي، وخاصة في مرحلة الشباب والمراهقة. نحن نعيش العصر الذي وصفه الحديث الشريف عنه ﷺ: «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»[1].

وفي الوقت نفسه، أصبحت أكثر المنافذ المشروعة مغلقة أمام الإنسان، وما عادت الأمور بسهولة الأزمنة الماضية. فالزواج في الماضي كان أسهل بكثير، وكان الشاب يستطيع الزواج في سنٍّ مبكرة، ومتطلبات الزواج كانت أيسر. بعكس الوضع الذي يعيشه الشباب الآن، حيث التأخر في الزواج، وإحاطة الزواج بمجموعة من العادات والأعراف، تثقل كاهل الشاب الذي يرغب في تحصين نفسه.

وإلى أن يتحقّق للشاب وللفتاة فرصة الزواج، فإنهما يقضيان سنوات طويلة تحت ضغط هذه الغريزة. وبالتالي، فهم بحاجة ماسّة إلى أجواء

(١) سنن الترمذي. ج٣، ص٢٦١، حديث ٢٢٦٠، وأيضًا: جامع أحاديث الشيعة ج١٦، ص٥٠٩، حديث ٢٢٤٥٧.

العفة والحشمة، حتى يُسيطروا على ضغط الغريزة الجنسية، فتكون في مستواها الطبيعي. أما إذا عاش الفتى والفتاة ضمن أجواء الإثارة، فهذا يعني تحدّيًا كبيرًا أمامهما، وأمام الأمن الاجتماعي بشكل عام. لهذا نسمع ونرى كثرة الجرائم والمفاسد والانحرافات، وهذه نتائج طبيعية للأجواء التي يعيشها الشباب في هذا العصر.

رعاية أجواء الحشمة

يؤكد القرآن الكريم على أجواء الحشمة حتى داخل البيت العائلي، وهي مسألة مهمة ينبغي تسليط الأضواء عليها، فرغم أن الإنسان في بيته يعيش مع محارمه، إلا أنه ينبغي أن تكون هناك أجواء الحشمة والعفة. تعاني أكثر البيوت الآن من عدم الانضباط في هذا الجانب، فالأم تبدو بكامل زينتها وإثارتها، ولا تحسب حسابًا إلى أن في البيت أبناءً وهم بشر يتأثرون بهذه الأجواء. وكذلك بين الإخوة والأخوات. وقد قرأنا تقارير وقصصًا كثيرة عن أشخاص انجرفوا إلى طرق الانحراف والفساد؛ لأن أجواء البيت لم تكن تتوفر فيها الحشمة والعفة، بل أصبحت هناك بعض الحالات من التحرش والاعتداء على المحارم، والعياذ بالله.

وتفيد قصص كثيرة أن شبابًا وقعوا في هذه الحالة؛ لأنهم يرون أخواتهم في وضع غير محتشم في البيت، فأثّر ذلك عليهم، إضافة لبقية المؤثرات التي يعيشها الشباب والفتيات، فيندفعون باتجاه الفساد والانحراف. لذلك ينبغي لكلّ العوائل مراعاة توفير أجواء الحشمة في البيت. وإذا كان على المرأة أن تتزين لزوجها، وأن تبرز له مفاتنها، فينبغي أن يكون ضمن الإطار الخاص، مع مراعاة وجود الأولاد في البيت.

وكذلك فيما يرتبط بالأفلام المبتذلة، فكم من الشباب والفتيات يشكون من آبائهم أنهم يشاهدون الأفلام المثيرة، وكذلك بالنسبة للأمّ، فعلى الوالدين أن يحسبوا حسابًا لهذا الجانب الخطير.

وفيما يتعلّق بلباس الأولاد، ينبغي مراعاة الحشمة في لباس البنات، وإن كنّ صغيرات في السن، ومما يُلفت الانتباه أنك تجد لباس الابن أستر من لباس أخته. فعلى العائلة أن تُدرك أن كثيرًا من المشاكل التي نعاني منها في المجتمع هي نتيجة التساهل في مثل هذه الأمور.

والله تعالى، في كتابه العزيز، يؤكد هذا الأمر، فيدعو الوالدين إلى تربية أبنائهم على الاستئذان عند الدخول عليهم، حتى وإن كانوا صغارًا لم يبلغوا الحلم، وخصوصًا في أوقات الراحة. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[سورة النور، الآية:٥٨]، حيث تشير الآية الكريمة إلى حفظ الخصوصية في العلاقات الزوجية، بعيدًا عن أعين الأولاد، وإن كانوا صغارًا. وهو إرشاد إلهي يوجهنا إلى أن نصنع أجواء الحشمة في البيت حتى يتربى أبناؤنا وبناتنا في أجواء محتشمة، وحتى لا نكون أعوانًا للشيطان عليهم، ولكي نُحافظ عليهم وعلى التزامهم وعفافهم.

ابتزاز الفتيات ودور العائلة

حبّ الإنسان لذاته يدفعه لتلبية الرغبات والشهوات التي تتحرك في داخل نفسه. لكن بعض هذه الرغبات قد توقعه فيما يضره. فلا بُدّ وأن يستعمل عقله للموازنة: (ربّ أكلة منعت أكلات).

وهناك من يخدع الإنسان عبر تحريك بعض رغباته، ليوقعه في المهالك. إما حسدًا له أو استغلالًا. وقد يقع الإنسان في فخ الخداع والتضليل، لبراءته وسذاجته، أو لغفلته، أو لسيطرة الرغبة عليه.

ولا يخفى دور الشيطان الرجيم في هذا الجانب، والقرآن الكريم يُسجّل لنا في أكثر من موضعٍ قصّة خروج أبينا آدم عليه السلام وأمّنا حواء عليها السلام من الجنة، وكان سبب ذلك استجابتهما لوسوسة الشيطان الرجيم، الذي أوقع بهما في هذا الخطأ وكانت نتيجته، كما يحكي القرآن الكريم، خروجهما من الجنّة، يقول تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا

عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[سورة الأعراف، الآيات: ١٩-٢١].

وجوهر القصّة أن الله تعالى أسكن آدم وحواء الجنة الواسعة ذات النعم الكبيرة، وكان النهي الإلهي من الاقتراب من شجرة واحدة، والأكل منها، إلا أن الشيطان الرجيم سعى بإغوائه ليُحرّك الرغبة عند آدم وحواء عليهما السلام للأكل من تلك الشجرة، وجاء لهما في صورة الناصح، مقسمًا بالله تعالى على ما يقول، وما كان في ذهن آدم وحواء عليهما السلام أن أحدًا يُقسم بالله تعالى كذبًا، فهذه أول تجربةٍ لهما في الحياة، لذلك استجابا لهذه الخدعة، وكانت النتيجة خروجهما من الجنة.

والقرآن الكريم حينما يحكي لنا هذه القصّة، إنما لأخذ الدرس والعبرة منها، وألّا ننخدع بمكائد الشيطان الرجيم، ولا ننخدع بأيّ تضليل، وهي في ذات الوقت تجربة عملية، يستعرضها الله تعالى أمام الإنسان، كي لا ينخدع بتضليل من يُحرّك رغبته وشهوته.

ظاهرة ابتزاز الفتيات

نشهد في هذا العصر، ومع تطور وسائل التقنية والاتصال، زحفًا غير معهود من قبل الشيطان وقبيله، فالشيطان أصبح يتمثل في قبيلة، بل قبائل، ويتحرّكون جميعهم من أجل إيقاع الإنسان في فخّ الشهوات والرغبات، التي تنتهي بحياته إلى الخسران والدمار.

ويقع الكثير من الناس في هذه الفخاخ، إما لضعف التجربة، أو لسيطرة الرغبات والشهوات، أو للبساطة والسذاجة، أو للغفلة.

ويأتي الشباب في الدرجة الأولى من قائمة المستهدفين من هذه الإغواءات، وأصبح الأمر يُشكّل ظاهرة خطيرة، تؤدي بمن يقع فيها إلى خسائر جسيمة. هذه الظاهرة هي ظاهرة الابتزاز، ويتحرّك المهووسون بهذا الأمر لابتزاز الفتيات في الغالب، وفي بعض الأحيان يقع الابتزاز على الشباب.

وقد يبدأ مسلسل الابتزاز بمكالمة عاطفية، تنجرّ الفتاة لها بحكم ظروفها العائلية، إلا أن هذه المكالمة تكون بداية نصب الفخّ لها، لتكون النتيجة دمار حياتها. والقصص في هذا الجانب كثيرة، والصحف المحلية تحكي عن جزءٍ من تلك القصص، فليس ما يُنشر هو كل شيء، بل هو جزء يسير من حوادث هائلة.

وتُشير الإحصائيات إلى أن ١٥٪ ممن يُراجعون المستشفيات النفسية، هم ممن تعرضوا للابتزاز. ولا يقتصر الابتزاز على الفتيات فحسب، وإنما حتى الشباب قد يتعرضون للابتزاز من قبل فتيات، أو من قبل شباب آخرين يحترفون هذا العمل الإجرامي.

أسباب ومعالجات

ومن أبرز الأسباب التي توقع الفتيات والشباب في فخاخ الإغواء:

أولًا: ضعف الدفء العائلي

فمعظم القضايا التي سُجّلت لدى الجهات المختصة، كانت أسبابها ضعف الدفء العائلي. وهنا يأتي دور العائلة في احتواء أبنائهم وبناتهم، وغمرهم بالدفء والعاطفة والحنان والحبّ.

فنحن نعيش في عصر تعدّدت فيه وسائل الإغراء والإغواء، وعلى العائلة: الأب والأم أن يأخذا هذا الأمر في اعتبارهما، وأن يتبادلا ابتداءً دور البذل العاطفي، ويغرسا ذلك في نفوس أبنائهم وبناتهم، لتنعم العائلة جميعًا بالحبّ والحنان.

ثانيًا: غياب الانفتاح في العائلة

حيث أصبح الابن في عالمه الخاص، والبنت في عالمها الخاص، والأب والأم كلٌّ في عالمه، ولقاء العائلة محدود، بل ومعرفة الأب أو الأم بحياة أبنائهم وبناتهم في مستوياته الدنيا. وهنا يستطيع من تُسوّل له نفسه التسلل إلى قلب الشاب أو البنت، ويبقى الأمر غائبًا عن أنظار العائلة، حتى تتفاقم المشكلة ويقع الشاب في الفخ، أو تقع الفتاة. وعندها لا يُفيد الندم.

فالمبالغة في الخصوصية للولد والبنت تجاه العائلة انعكاساتها سيئة للغاية، كما أن القسر والقسوة نتائجها سيئة أيضًا، ومن المهم هنا أن تسلك العائلة منهجًا وسطيًّا، أساسه الانفتاح على الأبناء والبنات، والقرب منهم، وإحاطتهم بالرعاية والاهتمام، فهذا الأمر خير وقايةٍ من كثير من احتمالات السوء والانحراف.

ثالثًا: عدم التفهم، وشعور البنت بأنها في موقع الضعف.

فالخطأ وارد من البنت، إلا أنها إذا لم تستطع المكاشفة مع أحدٍ من أسرتها، تكون المصيبة أعظم وأعمق، فتستمر البنت للخضوع في الابتزاز. ولذا ينبغي للآباء والأمهات أن يتفهّموا أوضاع بناتهم، وأن

يتصرّفوا بحكمة في مثل هذه المواقف. فالتعامل بالعنف والقسوة، وسوء الظن الشديد، يُنفّر الأبناء والبنات من المصارحة والمكاشفة، وبالتالي يكون ما هو أسوأ وأفظع.

وعلى الفتيات أن يقرأن ويُتابعن أحداث المجتمع، والقضايا التي تحصل لمثيلاتهنّ، لكي يأخذن الدرس والعبرة، ويعرفن كيف يتصرّفن في مثل هذه المواقف، ومن المهمّ أن ينفتح الأب والأم على الأبناء والبنات، وإطلاعهم على ما يجري من حولهم، ليكون ذلك سببًا لليقظة والانتباه.

وهكذا القرآن الكريم حين يورد لنا قصة أبينا آدم وأمّنا حواء، من أجل أن تكون تجربة على مسرح الحياة، نستلهم منها دروسًا وعبرًا، تكسبنا خبرة تقينا من الانخداع والاستجابة لدوافع الرغبة والشهوة دون تفكير.

وعلينا أن نُعلن لأبنائنا وبناتنا عن هذه المشكلة والظاهرة، ونوجّههم للتصرف السليم حيالها، قبل وقوع المشكلة، فذلك أدعى لسلامتهم من أن ننتظر حصول المشكلة، لنفكّر في العلاج.

لا يُقصّر الإنسان عادة في الإنفاق من ماله وجهده على عياله، بل يعطيهم الأولوية في ذلك على كلّ أحد.

لكنّ البعض قد يعطي الأولوية للآخرين في حسن الخلق والتعامل، أما أفراد عائلته فلا يهتم كثيرًا بإبداء الاحترام والإكرام لهم؛ لأنّ له الميانة عليهم، ولأنّ علاقتهم به مضمونة، كما لا يخشى ردود فعل منهم.

لذلك لهم الأولوية في الإنفاق المالي والجانب الخدماتي، ولغيرهم الأولوية في إسباغ الاحترام والإكرام، وهذا تصور خطأ ونهج غير سليم.

التكليف الشرعي

وقد يتجاوز البعض الحدود، فيتعامل مع أفراد عائلته بأسلوب مسيء، كالإهانة والتعنيف، وهذا ما يدخل في دائرة المعصية لله تعالى، ومخالفة التعاليم الشرعية.

فكما أوجب الله تعالى الإنفاق على الأسرة، أوجب حسن المعاشرة لها، ونهى عن أيّ إساءة لأيّ فردٍ من أفرادها، زوجًا أو زوجةً، أو أولادًا.

حيث تؤكّد عدة آيات في القرآن الكريم التعامل بالمعروف في الحياة الزوجية، كقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[سورة النساء، الآية: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٣١].

والمعاشرة بالمعروف تعني المعاملة بأسلوب لائق منسجم مع تعاليم الشرع، وأعراف المجتمع.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فاستوصوا بالنساء خيرًا»(١).

وعنه ﷺ أنه قال بعد دفن الصحابي الجليل سعد بن معاذ: «إنّ سعدًا قد أصابته ضمّة، ... إنه كان في خلقه مع أهله سوء»(٢).

وروي عنه ﷺ أنه قال: «من كان له امرأة تؤذيه لم يقبل الله صلاتها ولا حسنة من عملها حتى تعينه وترضيه. وعلى الرجل مثل ذلك الوزر إذا كان لها مؤذيًا ظالمًا»(٣).

وفي رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام قال: «وأما حقّ الزوجة فأن تعلم أن الله عزّ وجلّ جعلها لك سكنًا وأنسًا فتعلم أنّ ذلك نعمة من الله عليك فتكرمها وترفق بها»(٤).

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام «لا شفيع أنجح للمرأة عند ربها من

(١) صحيح البخاري، ج٣، ٣٩٢، حديث ٥١٨٦.
(٢) بحار الأنوار، ج٦، ص٢٢٠، حديث١٤.
(٣) المصدر نفسه. ج٧٣، ص٣٦٣، حديث٣٠.
(٤) محمد بن علي بن بابويه القمي. الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص٦٢١.

رضا زوجها»[1].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ ليس يغضب لشيءٍ كغضبه للنساء والصبيان»[2].

كسب الأجر والثواب

إذا كان المسلم حريصًا على كسب الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، بأداء العبادات وإعطاء الصدقات، وسائر أعمال الخير، فعليه أن يعلم أنّ حسن تعامله مع أفراد أسرته، وتقديم الاحترام والإكرام لهم، هو من أعظم موجبات رضا الله سبحانه، ونيل رحمته وثوابه، وهو مقياس صلاح الإنسان وخيريته، هذا ما تؤكّد عليه النصوص الدينية، كقوله صلى الله عليه وآله: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله: «جلوس المرء عند عياله أحبّ إلى الله من اعتكاف في مسجدي هذا»[4].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله»[5].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «رحم الله عبدًا أحسن فيما بينه وبين زوجته»[6].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٤، ص١٦٤.
(٢) الكافي، ج٦، ص٥٠، حديث٨.
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، ص٥١٣، حديث ٢٨٥.
(٤) ورام بن ابي فراس بن حمدان المالكي الاشتري،تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، ج٢، ص١٢٢.
(٥) الكافي، ج٤، ص١١، حديث١.
(٦) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص١٧٠، حديث٢٥٣٣٤.

وروى الإمام الصادق أنه: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّ لي زوجة إذا دخلت تلقتني وإذا خرجت شيعتني وإذا رأتني مهمومًا قالت: ما يهمّك، إن كنت تهتم لرزقك فقد تكفّل به غيرك، وإن كنت تهتمّ بأمر آخرتك فزادك الله همًّا، فقال رسول الله ﷺ: بشِّرها بالجنة»[1].

تعزيز الثقة وإشباع العواطف

ومن أهمّ آثار الاحترام المتبادل داخل العائلة، أنه يعزّز الثقة في نفوس أفرادها، ويحقّق لهم الإشباع العاطفي، فالولد المحترم ضمن أسرته، يعيش الثقة والاستقرار النفسي، بينما إذا تعرّض للإهانة والإذلال، تنكسر شخصيته وتهتزّ ثقته بذاته، وكذلك الحال فإنّ الفتاة التي يغمرها أهلها بعواطف المحبّة والتقدير، تكون قوية الشخصية، قويمة السلوك، بخلاف إذا كانت تعاني قسوة التعامل وجفاف العواطف ضمن عائلتها، فإنها قد تكون فريسة سهلة لمن يتلاعب بمشاعرها وعواطفها من خارج المنزل. وهذا ما تؤكّده التقارير التي تتحدث عن هروب الفتيات من أسرهنّ، أو وقوع بعض النساء المتزوجات في علاقات غير مشروعة، حيث تشير إلى أنّ الجوع العاطفي، وسوء التعامل، هو سبب رئيس لنسبة كبيرة من الحوادث المرصودة.

إنّ تبادل الاحترام والتقدير داخل العائلة، يرفع درجة التماسك والانتماء العائلي، وينعكس إيجابيًّا على نفوس أفراد العائلة وسلوكهم وإنتاجهم في مختلف المجالات.

ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «القول الحسن يثري المال، وينمي

(١) مكارم الأخلاق، ص٢١٥.

الرزق وينسي في الأجل، ويحبّب إلى الأهل، ويدخل الجنة»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من حسن برّه بأهله زاد الله في عمره»[2].

وقد أشارت النصوص الدينية إلى بعض مظاهر ومفردات الاحترام والاكرام بين أفراد العائلة، كالتوجيه إلى إلقاء التحية والسلام عند دخول المنزل، حيث ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا دخل أحدكم بيته فليسلّم»[3].

وكإبداء الرجل حبّه لزوجته، كما روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «قول الرجل للمرأة: إني أحبّك، لا يذهب من قلبها أبدًا»[4].

أمّا الاهتمام بمشاعر الأطفال وإكرامهم، فقد وردت فيه نصوص كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وآله: «أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم يغفر لكم»[5].

وعنه صلى الله عليه وآله: «من قبّل ولده كتب الله عزّ وجلّ له حسنة»[6].

وعنه صلى الله عليه وآله: «ويسمى بأحسن الأسماء ويكنّيه بأحسن الكنى»[7].

وعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «إذا وعدتم الصبيان ففوا لهم»[8].

التربية على الاحترام

حين يعيش الإنسان في عائلته أجواء الاحترام المتبادل، يحترمه

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣١٠، حديث١.
(٢) الكافي، ج٨، ص٢١٩، حديث٢٦٩.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٧٥، حديث٢.
(٤) الكافي، ج ٥، ص ٥٦٩، حديث٥٩.
(٥) وسائل الشيعة، ج٢١، ص٤٧٦، حديث٢٧٦٢٩.
(٦) الكافي، ج٦، ص٤٩، حديث١.
(٧) بحار الأنوار. ج ١٠١، ص١٢٦، حديث٨٧.
(٨) الكافي، ج٦، ص٥٠، حديث٨.

أفراد العائلة، وهو يحترمهم، فإنّ ذلك يكرّس هذا السّلوك في تعامله مع الآخرين خارج العائلة، فيحترم الناس، ولا يرضى لنفسه الإهانة والتحقير من أحد.

وتثبت الملاحظة أنّ الأطفال الذين تجري على ألسنتهم ألفاظ بذيئة تجاه الآخرين، قد اكتسبوا هذا الأسلوب مما يسمعونه داخل عوائلهم. فما يتكرر على مسامع الزوج والزوجة، والأولاد في المنزل، يصبح مقبولًا في نفوسهم، ويعتادون على استخدامه في المنزل أولًا، ثم يتجرأون على ممارسته خارجه.

كما أنّ تلقي الفرد للإهانة والتحقير من القريبين منه، وألفته لذلك، تنزع من نفسه التحسّس لتعامل الإهانة والإذلال من قبل البعيدين؛ لأنه أَلِفَ هذا الأسلوب وتعايش معه.

ولعلّ ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أذلّ الناس من أهان الناس»[1]، يشير إلى هذه الحقيقة، فالذليل داخل نفسه، لا يرى قبحًا في توجيه الإهانة للآخرين.

كما يلمح الإمام الحسين عليه السلام إلى أنّ من عوامل رفضه لقبول المذلة، نشأته في أسرة طيّبة، غرست في نفسه العزّة والكرامة، حيث قال: «هيهات منا الذلّة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبيّة من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[2].

(١) بحار الأنوار، ج٧٢، ص١٤٢، حديث٢.
(٢) تحف العقول، ص٥٨.

الفصل الخامس

منزلق العنف

العنف الأسري

العائلة هي الدائرة الأقرب للإنسان والأكثر التصاقًا به، وحينما تكون علاقة الإنسان داخل عائلته علاقةً طيبة، ويكون هناك انسجامٌ بينه وبين عائلته، فإن ذلك يجعل الإنسان أكثر سعادة، وأكثر قدرة على الإنتاج والفاعلية، وأقرب إلى حسن المعاملة مع الآخرين. أما إذا كان على العكس من ذلك، فهذا يوجد له الكثير من الانزعاج والقلق النفسي، ويؤثر على إنتاجه، ويُرشحه أيضًا ليكون سيئًا في وضعه الاجتماعي العام. ولهذا جاءت النصوص والأحاديث تؤكد أن يكون الإنسان حسنًا ومحسنًا في علاقاته العائلية. فقد جاء عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»[1] فالرسول ﷺ يجعل حسن العلاقة العائلية مقياسًا للخيرية بين الناس. وقال الإمام الصادق عليه السلام: من صدق لسانه زكا عمله، ومن حسنت نيته زاد اللَّه عز وجل في رزقه، ومن حسن بره بأهله، زاد اللَّه في عمره[2]. فقد تكون الزيادة في العمر أثرًا غيبيًا، وقد

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، ص٥١٣، حديث ٢٨٥.
(٢) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٣٠٣.

تكون أثرًا طبيعيًا؛ لأن حسن البر للأهل يوجب الارتياح النفسي، وهذا له أثر كبير على صحة الإنسان، مما يجعل عمر الإنسان طويلًا. ولذلك ينبغي للإنسان أن يكون حريصًا جدًّا على أن تكون علاقته داخل عائلته علاقةً طيبة وعلى أحسن ما يكون. ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ». ففي بعض الأحيان ترى علاقة البعض مع الآخرين حسنة، ولكنهم مع المحيط الأسري يتحولون إلى وحوش كاسرة، والسبب أنهم يرون أن علاقتهم مع الآخرين تحكمها مصالحهم معهم، ونظرتهم لهم، فهم مضطرون لتحسين علاقتهم معهم.

يزداد الحديث الآن، على المستوى الوطني والعربي والإنساني، حول قضايا العنف الأسري، فأصبحت هناك مؤسسات عالمية تتحدث عن هذا الموضوع، وتشكلت منظمات في مختلف الدول لحماية الإنسان من العنف الذي يتعرض له داخل أسرته.

بالطبع، حالات العنف الأسري، كالعنف ضد المرأة أو تعرض الأولاد لعنفٍ مبالغٍ فيه داخل أسرهم، ليست جديدة الحدوث فهناك حالات كثيرة كانت تحصل في المجتمع ولكن الجديد في الأمر هو إظهارها إعلاميًا، وتسليط الأضواء عليها.

والسؤال: هل هناك حالاتٌ للعنف الأسري في منطقتنا؟ وهل تشكل ظاهرةً أم أنها حالاتٌ نادرة؟

يبدو لي من خلال متابعتي الاجتماعية، وما يصلني من قضايا ترتبط بهذا الشأن، أن هناك حالاتٍ كثيرةً من العنف الأسري، ولكننا إذا سلطنا الأضواء على ما يبرز منها، فإننا لا نستطيع أن نصنّفها في مستوى

الظاهرة الاجتماعية، أما إذا تأملنا في واقع حياة المجتمع فإن ما يظهر من هذا الحالات ما هو إلا جزءٌ قليل قد لا يُساوي ١٠٪ من واقع الحالة الموجودة.

هناك عنف أسري منزلي يُمارس ضد المرأة في بعض الأحيان، ويُمارس ضد الأولاد في أحيانٍ أخرى. والعنف الذي يُمارس ضد الأولاد قد يكون من قبل الوالدين، أو من طرفٍ ثالث كما لو كانت أم الأولاد متوفاة أو مطلقة، وكان هؤلاء الأولاد تحت رعاية امرأة أخرى.

العنف الأسري أسوأ أنواع العدوان

واضح أن العنف الأسري سيءٌ وقبيح، لأن الأسرة هي ملاذ الإنسان وملجؤه ومأمنه، وإذا كان الإنسان يواجه العدوان داخل أسرته فأين يبحث عن الأمن والملجأ؟!

ضع أمامك صورةً لطفل يُصيبه أي اعتداء، فإنه يهرع لأمه أو أبيه، فإذا كانت الأم هي مصدر العدوان عليه، فإلى من يهرع هذا الطفل؟ فيصبح لديه شعورٌ وكأنه لا جهة تحميه، وبالطبع هو غير قادر على حماية نفسه، وهذه المشاعر حينما تتراكم في نفس الطفل تخلق لديه عقدًا وأمراضًا نفسية، ويبدأ يُفكر في مختلف الأساليب والوسائل للدفاع عن ذاته. وتحصل عنده مشاعر ضد الناس، لعدم وجود من يحميه فيهم.

فالعنف الأسري هو أسوأ نوعٍ من أنواع العدوان ممكن أن يتعرض له الإنسان، لأن الجهة المكلّفة بحمايته تُصبح هي مصدر العدوان عليه.

العنف الأسري يُهيئ الإنسان لممارسة العنف ضد الآخرين.

من ناحيةٍ أخرى، الإنسان في الأسرة يتعلم أساليب الحياة، وأنماط العلاقات والتعامل، فإذا كان العنف هو أسلوب التعامل داخل الأسرة، فسيتربى الأولاد على هذا الأسلوب في تعاملهم مع الآخرين.

والجدير بالذكر أن الدراسات الميدانية الاجتماعية على الأشخاص الذين مارسوا العنف تجاه زوجاتهم أو أولادهم، تؤكد أن النسبة الكبرى لهؤلاء قد تعرضوا للعنف في صغرهم، أو عايشوه في محيطهم العائلي وأوجد ذلك عندهم التوجه والاستعداد لممارسة العنف ضد الآخرين فيما بعد.

أسباب العنف ضمن الأسرة

أولاً: سوء الخلق

فإذا كان الإنسان سيء الخلق، فإن أول ظهورٍ لهذا الخلق السيئ يكون ضمن الإطار الأسري، لأن الأسرة هي الدائرة الأقرب إليه والأكثر احتكاكًا به.

إذا شعر الإنسان أنه في موضع القوة وكان سيئ الأخلاق فإن ذلك يدفعه لممارسة العدوان على الآخرين، خصوصًا إذا علم أن الطرف الآخر لا سبيل له للانتقام. وهذا تمامًا ما يقوم به الرجل الذي يُمارس العنف تجاه أسرته، ولذلك وردت عدة أحاديث تُحذر من ظلم الضعيف، كما ورد في وصية الإمام الحسين عليه السلام لابنه الإمام علي بن الحسين عليه السلام حيث قال له: «أي بنيّ إيّاك وظلم من لا يجد عليك ناصرًا إلّا اللّه جلّ وعزّ»[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١١٨.

ثانياً: رد فعل لضغط الظروف الحياتية

يواجه الإنسان في حياته ضغوطًا متعددة: اقتصادية، واجتماعية، فحينما تتجمع هذه الضغوط في نفس الإنسان قد يفتّش عن متنفس لكبته الذي يعيشه، حينها يلجأ لظلم عائلته أو من هم دونه.

ثالثاً: الثقافة الخطأ

ومن مظاهرها شعور الإنسان بأن له الصلاحية الكاملة والمطلقة في التصرف تجاه عائلته، وكأنه لا حساب ولا عقاب، بعكس ما عليه الحال في تعامله مع الآخرين. ويُكرّس هذا الشعور الخطأ، في كثير من الأحيان، عند الإنسان حالة الإساءة لعائلته. ولو تأمل الإنسان الجانب الشرعي لوجد أنه لا يمتلك هذه الصلاحية.

نعم، في الشرع مسألة التأديب، بأن يؤدب الأب أولاده، ولكن التأديب له حدوده وضوابطه، فليس من حق الإنسان أن يفعل ما يشاء بأولاده تحت عنوان التأديب.

وفيما يرتبط بالزوجة هناك حكمٌ خاص للناشز، يقول تعالى: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُن﴾[سورة النساء، الآية: ٣٤]، وهو ضمن حالات استثنائية ناقشها الفقهاء، وضمن ضوابط أيضًا، وليس مسألة مطلقة.

ويعتقد البعض أن تقصير المرأة في الطبخ أو الخدمة المنزلية، أو تجاه أولادها، يُجيز له استخدام العنف معها، أو الإساءة لها، على اعتبار أنها قصّرت في حقٍّ من حقوقه، وهذا اعتقاد خطأ. فعلى الإنسان أولًا

أن يعرف ما هي حدود حقوقه، وأن لا يذهب بها عريضة تجاه زوجته. فالشرع المقدّس لم يوجب على المرأة حتى إرضاع أطفالها، بل ولها أن تطلب الأجرة من الأب على ذلك، فكيف يحق للأب مطالبة زوجته وتعنيفها فيما لم يجعله الشرع من واجباتها!

وهناك نصوص كثيرة في هذا الاتجاه، كما ورد عن رسول اللَّه ﷺ: «فأي رجل لطم امرأته لطمة، أمر الله عز وجل مالك خازن النيران فيلطمه على حر وجهه سبعين لطمة في نار جهنم»[1].

وعنه ﷺ: «أيما رجل ضرب امرأته فوق ثلاث، أقامه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيفضحه»[2].

وتجاه الأولاد كذلك، إذ لا يصح للإنسان أن يُمارس العنف تجاههم، ومن ناحية التأديب فعلى الأب أن يعلم أن الطفل يحتاج إلى فترةٍ من العمر حتى يَعِيَ ماذا تعني المسؤولية. والنصوص تحدّد هذا العمر بسبع سنين، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «دع ابنك يلعب سبع سنين، ويُؤدب سبع سنين، وألزمه نفسك سبع سنين، فإن أفلح وإلا فإنه ممن لا خير فيه»[3].

فماذا يُقال عن بعض الأشخاص الذين يُمارسون العنف ضد أولادهم في هيجان الغضب، مما قد يُسبب تلفًا لعضوٍ من أعضاء الولد.

وهناك العديد من القصص التي يندى لها الجبين من فظاعتها، فمرةً

(١) مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ٢٥٠، حديث ١٦٦١٩.
(٢) المصدر نفسه. ج ١٤، ص ٢٥٠، حديث ١٦٦٢١.
(٣) من لا يحضره الفقيه، ج ٣، كتاب النكاح، باب: تأديب الولد وامتحانه، ص٧٣٧.

دخل أحدهم المطبخ ليرى بعض أواني المطبخ مكسرة، وإلى جانبها طفله وهو يلعب، فلم يتمالك الأب نفسه فعمد إلى لوحٍ فيه مسامير صادية، وضرب بها طفله ضربًا مبرحًا، وفي المستشفى قرر الطبيب بَتْر يد الطفل لما أصابها من التسمم، وبقي الأب نادمًا طول حياته في وقت لا ينفع فيه الندم.

الظلم المنزلي أفحش الظلم

لقد حبا الله سبحانه الناس إجمالًا القدرة على الدفاع عن أنفسهم، والانتصار لحقوقهم. وقد ورد في الآية الكريمة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّـهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٥١]، ومن فضل الله تعالى أن منح الناس القدرات والإمكانات التي يحمون بها ذواتهم، ويدافعون بها عن حقوقهم، وقد شرّع لهم سبحانه الدفاع عن ذواتهم، فقال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٤].

لا أسوأ من ظلم الضعيف

لكن هناك فئة من الناس ـ ولأسباب مختلفة ـ ليست لها القدرة على الدفاع عن نفسها. فقد يحصل أن يمنح البعض نفسه الحقّ في الاعتداء على حقوق الغير، نتيجة اختلال في موازين القوة، في الوقت الذي يعجز فيه الطرف المقابل لضعفه وقلة حيلته، عن الدفاع عن نفسه، أمام هذا الظلم والعسف، وهذا تحديدًا ما يُغري الظالمين على المبالغة في ظلم

الآخرين. إن ارتكاب الظلم بحدِّ ذاته عمل قبيح، ويكون أشدّ قبحًا إذا ارتكب بحقّ الضعفاء من الناس.

من هنا نجد في النصوص الدينية الوعيد الإلهي لهؤلاء الظلمة، بالانتقام من ظلمهم للضعفاء المظلومين، الذين لم يكن لهم حيلة في الدفاع عن أنفسهم. «إيّاك وظلم من لا يجد عليك ناصرًا إلّا الله»، وروي عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «إنّ العبد إذا ظلم فلم ينتصر، ولم يكن له من ينصره ورفع طرفه إلى السماء، فدعا الله، قال الله: لبيك أنا أنصرك عاجلًا وآجلًا»[1]، كما ورد في نصٍّ آخر عنه ﷺ: «إنّ لله يوم ينتصف فيه للمظلوم من الظالم»[2].

وعنه ﷺ حاكيًا عن الله تعالى: «لا يجوز إلى جنتي اليوم ظالم، ولا يجوز إلى ناري اليوم ظالم ولأحدٍ من المسلمين عنده مظلمة حتى يأخذها منه»[3] فهناك انتقام إلهيّ في الآخرة وانتقام في الدنيا، ولربما أوقع الله الانتقامين على الظالم الذي يمارس ظلمه على الناس.

وعنه ﷺ: «اشتد غضب الله على من ظلم من لا يجد ناصرًا غير الله»[4].

وسئل عليّ عليه السلام: أيُّ ذنبٍ أعجل عقوبة لصاحبه؟ فقال: «من ظلم من لا ناصر له إلّا الله»[5].

(١) كنز العمال. ج ٣، ص٥٠٧، حديث ٧٦٨٤.
(٢) بحار الأنوار. ج ٢٨، ص٧٨، حديث ٣٨.
(٣) الكافي. ج ٨، ص١٠٦.
(٤) كنز العمال. ج ٣، ص٥٠٠، حديث ٧٦٠٥.
(٥) الشيخ المفيد. الاختصاص، ص٢٣٤.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «ما من مظلمة أشدّ من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عونًا إلّا الله عزّ وجلّ»[1].

هناك مصداقان لظلم الضعفاء تتحدث عنهما النصوص الدينية، هما: المصداق العام الذي ينطبق على ظلم الشعوب المقهورة، والمصداق الخاصّ هو العنف الأسري. والأخير هو ما يرتكبه الأفراد على نحو شخصيٍّ تجاه الأضعف منهم داخل المنزل وبين أفراد الأسرة.

العنف الأسري

أما المصداق الخاصّ للظلم، فهو العنف الأسريّ. وهو ما ينطبق على الأوضاع الشخصية للأفراد، وجنوحهم لظلم الأضعف منهم داخل المنزل، وبين أفراد الأسرة أو الخدم. فهذا النوع من الظلم، هو الآخر مصداق جليّ لظلم الضعيف، وظلم من لا يجد عليك ناصرًا إلّا الله.

وقد بلغ من أهمية هذا الموضوع أنْ حدّدت الجمعية العامة للأمم المتحدة يومًا لمناهضة العنف ضد المرأة، وهو الخامس والعشرين من نوفمبر من كلّ عام، استشعارًا لأهمية هذه المشكلة وانعكاساتها المدمّرة على النساء والأطفال في مختلف دول العالم. إذْ إنّ ضحايا هذا العنف ربما كانوا أطفالًا صغارًا ممن أودعهم الله أمانة عند أبويهم، اللذين يفترض بهما حمايتهم، وتنشئتهم، والاهتمام بهم، غير أنّ ما يجري أحيانًا هو العكس تمامًا، حيث حالات الظلم والعدوان، فمن لهذا الطفل الضعيف الذي يتعرّض للظلم داخل أسرته؟ ومن للمرأة التي تُظلم على

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص٤٦، باب تحريم الظلم، حديث ١.

يد زوجها؟ وخاصة إذا كانت الأعراف والتقاليد تقف إلى جانب الزوج، ويزيد من ذلك سوءًا غياب القوانين التي تحمي النساء والأطفال من مثل هذا العنف والعدوان. كما ينطبق ذلك على خدم المنازل الذين يعيشون حالة من الضعف ويقع عليهم ظلم كبير، في كثير من الأحيان. من هنا يعتبر العنف الأسري هو الأكثر قسوة على الضحايا؛ لأنّ هذا العنف صادر عن الجهة التي يفترض بها توفير الرعاية لهؤلاء الضحايا، فإذا هي تتحول إلى مصدر شقاء لهم.

قوانين الحماية ضد العنف الأسري

ولحسن الحظ فإنّ البشرية شرعت في وضع قوانين الحماية ضد العنف الأسري. فقد سنّت بلدان كثيرة قوانين صارمة ضد العنف الأسري، تنتصر للضعفاء من النساء والأطفال، الذين يُظلمون ويُستضعفون داخل أسرهم، وفي الحضن الذي يجب أن يوفر لهم الرعاية والشفقة والحنان. ومن المناسب التنويه هنا، إلى أنّ بلادنا بدأت مؤخرًا في وضع قانون للحماية من العنف الأسري، مكون من ١٧ مادة، وبضمنها عقوبة الحبس والغرامة على مرتكبي العنف الجسدي والنفسي داخل الأسرة.

نحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى نشر الوعي والثقافة العامة في أوساط المجتمع، حتى يرتدع الناس عن ظلم بعضهم بعضًا، خاصة تجاه الضعفاء منهم. إنّ من المؤسف أن نجد هذه الممارسات الظالمة بحقّ الضعفاء في مجتمعات إسلامية محافظة!.

وفي هذا الشأن كشف تقرير صادر عن وزارة العمل والتنمية

الاجتماعية عن ارتفاع نسبة العنف الأسري محليًّا بواقع ٤٥ ٪.

وبحسب الإحصائية فهناك ٥٠٠ قضية تعنيف أسري سجلت خلال عام ٢٠١٦م، وبحسب وزارة العدل فهناك ٦٠٦ حالات عنف للمرأة والطفل داخل المحاكم[١].

وورد عن مستشار البرامج الاجتماعية في وزارة العدل السعودية أنّ هناك حالات عنف كثيرة قد تبقى داخل المنازل ولا تصل للقضاء، وأنّ ما يصل إلى أروقة المحاكم هو الشيء القليل، وسبب ذلك هو قلة الحيلة لدى ضحايا العنف من النساء والأطفال، علاوة على ما ينتابهم من مخاوف اجتماعية إزاء تشويه السمعة، والتعرض للتشهير، والاتهام بنشر غسيل منازلهم، فيتحملون نتيجة ذلك ما يتعرضون له من ظلم داخل المنزل[٢].

إنّ من المهم أن يدرك مرتكبو العنف الأسري ضد الضعفاء من النساء والأطفال، أن الله تعالى لهم بالمرصاد. فهذا الأب أو الأم، الزوج أو الزوجة، اللذان يمارس أحدهما الظلم على الآخر، أو تجاه الأطفال، ينبغي أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى يتوعّدهم بالانتقام، فهذا الطفل المعنّف لا يستطيع أن ينتصر لنفسه، ولكن الله تعالى ينتصر له، وينتقم من ظالميه. ينبغي أن يفهم الجميع أن مجرد رفع الصوت على نحو مخيف في وجه هؤلاء الضعفاء هو أمر يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة، فضلًا عن سائر أنواع العنف!.

(١) صحيفة الوطن السعودية https://www.alwatan.com.sa/article/393581

(٢) صحيفة البلاد السعودية الصادرة بتاريخ ٢١ شوال ١٤٣٤هـ.

من هنا، فإنّ على المرء أن يتقي الله في تعامله مع زوجته وأبنائه، وأن يضع في اعتباره دائمًا أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه ليس في يوم القيامة فحسب، وإنما قد تبدأ عواقب الظلم الأسري من داخل القبر وفي عالم البرزخ، وفق ما تشير له بعض النصوص، فقد روي عن النبي الأكرم ﷺ حينما شيّع أحد أصحابه، وتفاءل له المسلمون بالجنة، حتى قالت أمّه: يا سعد، هنيئًا لك الجنة، فخاطبها ﷺ: «يا أمّ سعد، مَهْ! لا تجزمي على ربك، فإن سعدًا قد أصابته ضمّة»، أي ضغطة في قبره، وأوضح ﷺ سبب هذه الضمّة «إنّه كان في خلقه مع أهله سوء»[1].

(١) بحار الأنوار. ج ٢٢، ص١٠٧، حديث ٦٧.

في مواجهة العنف الأسري

ورد عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «إن عليًا عليه السلام رجع إلى داره في وقت القيظ، فإذا امرأة قائمة تقول: إن زوجي ظلمني وأخافني وتعدى عليّ وحلف ليضربني. فقال: يا أمة الله، اصبري حتى يبرد النهار ثم أذهب معك إن شاء الله. فقالت: إذًا يشتدّ غضبه عليّ. فطأطأ علي رأسه ثم رفعه وهو يقول: لا والله أو يؤخذ للضعيف حقه غير متعتع، ثم التفت إليها وقال لها: أين منزلك؟ فدلته إليه. فمر عليه السلام إلى بابه، فقال عليه السلام: السلام عليكم. فخرج شاب فقال علي عليه السلام: يا عبدالله اتق الله في أهلك فإنك قد أخفتها وأخرجتها. فقال الفتى وهو لم يعرف أمير المؤمنين عليه السلام: وما أنت وذاك؟ والله لأحرقنها لكلامك. فسل الإمام سيفه، وقال له: آمرك بالمعروف وأنهاك عن المنكر، تستقبلني بالمنكر وتنكر المعروف، فأقبل الناس من الطرق وهم يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فسقط الرجل في يديه فقال: يا أمير المؤمنين، أقلني عثرتي، فوالله لأكونًا لها أرضًا تطأني فأغمد علي عليه السلام سيفه فقال: يا أمة الله، ادخلي منزلك ولا

تلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه»[1].

نريد أن نتوقف عند هذا المشهد من سيرة الإمام علي عليه السلام لأخذ الدروس والعبر.

عنف الرجل تجاه المرأة

قد تحصل مشكلة أو خلاف بين الرجل والمرأة، لسبب أو لآخر، ولكن ينبغي أن تحل هذه المشاكل بالحوار والتفاهم، وأن يصبر الزوج على زوجته والعكس، حتى لو اضطر أحدهما للتنازل عن حقه، سيما مع وجود الأولاد، حيث إن شجار الوالدين أمام أولادهما ينعكس سلبًا على شخصيتهم وسلوكهم، ويزعزع أمن واستقرار العائلة.

حل المشاكل بين الزوجين ينبغي أن يكون عبر تعاليم الإسلام السمحة، ولكن عادة ما يستخدم الرجل قوته لحل المشكلة بالعنف والقسوة. هناك تقارير حول عنف الزوجات على أزواجهن بالضرب والإهانة وما شابه، لكنها تبقى حالات محدودة مقارنة بما هو الحال عند الرجال. هذه المشكلة ليست في بلد دون بلد حسبما ما تشير إليه التقارير الدولية:

- ٣٠ ٪ من النساء الأميركيات تعرضن للعنف الجسدي من أزواجهن.
- مليون و٨٠٠ الف مُعنفة سنوياً في الولايات المتحدة الأميركية.
- ٤٢٪ من نساء باكستان يقبلن العنف كمصير محتوم لا يستطعن

(١) بحار الأنوار. ج٤١، ص٥٧.

الإفلات منه.

- ٧٠٪ من حوادث قتل النساء تتم على أيدي أزواجهن.
- ٣٦ ألف امرأة روسية يتعرضن للضرب يومياً على أيدي أزواجهن.
- ١٨٪ من نساء أستراليا تعرضن للضرب خلال عام واحد.
- ٢٠٪ إلى ٦٠ ٪ من النساء في الدول النامية يتعرضن للضرب داخل الأسرة أو من أزواجهن.

وهكذا في كل البلدان بشكل أو بآخر فإن هذه الحالة موجودة. يشعر الرجل بأنه في موقع قوة، فيمارس العنف تجاه زوجته. وهذا خطأ كبير، وآثاره سيئة جدًا، والنصوص الشرعية تحذر من ذلك كثيرًا، ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لما حضر علي بن الحسين عليه السلام الوفاة ضمني إلى صدره ثم قال: يا بني، أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة وبما ذكر أن أباه أوصاه به قال: يا بني، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصرًا إلا الله»[1].

لا تسكتي عن حقك أيتها المرأة

على المرأة ألا تسكت عن حقها؛ لأن هذا يضاعف المشكلة عليها، ويؤسس ظاهرة خطيرة في المجتمع. المرأة التي جرت قصتها مع أمير المؤمنين عليه السلام لم تسكت عن حقها، بل ذهبت إلى أعلى موقع في المجتمع، تشكو له ظلم زوجها، وتطالب برفع الظلم عنها. لكن ما نشهده أن كثيرًا من النساء لضعف شخصياتهن، أو لعدم وضوح الرؤية لهن، أو لأي

(١) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ٤٨.

سبب آخر، يسكتن عن حقهن ويتحملن أذى الزوج لهن، حتى يتمادى الرجل في غيه. وعلى المرأة أن تبحث عن معالجة تدفع عنها الضرر، وتحافظ على كيانها العائلي.

من ناحية أخرى، ينبغي الوقوف مع المرأة، كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام، حيث ذهب لنصرة تلك المرأة مع الظروف القاسية، من حرارة الشمس. لكنه تحمل ذلك في سبيل نصرة المظلوم وأخذ الحق له. لا شك أن السعي للإصلاح يعرض الإنسان لكثير من المشاكل والأتعاب والإهانة، لكن مناصرة المظلوم مسؤولية وواجب شرعي لا يجوز الاستهانة به.

كما أن القوانين الرسمية ينبغي أن تكون صارمة رادعة لممارسي العنف الأسري. لأن قضايا مأساوية تحصل في المجتمع من قبل بعض الأزواج تجاه زوجاتهن.

علينا ألا نسكت عن ظلم الزوج لزوجته، وألا نرضى بذلك؛ حماية لحقوق المرأة، وحفظًا لاستقرار المجتمع وأمنه.

تأهيل المرأة

وأخيراً لا بدّ من تثقيف المرأة وتأهيلها للنجاح في علاقاتها الزوجية، فقد تصدر منها تصرفات أو ممارسات تسبب الخلل في علاقتها بزوجها، ولهذا توجه الإمام علي للزوجة ناصحاً ومحذرًا: «لا تلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه».

لغة التخاطب مع الأقربين

تمثل لغة التخاطب مع المحيط الأسري والاجتماعي قاعدة أساس لسلامة العلاقة وقوة الرابطة. فلا شيء يسعد الإنسان ويريحه أكثر من سلامة علاقاته مع من حوله، ولا شيء يشقيه ويؤذيه أكثر من سوء علاقاته بالمحيطين به. فكلما كانت علاقات الإنسان مع محيطه علاقة طيبة، انعكس ذلك بطبيعة الحال على سعادته وراحته النفسية، أما إذا ساءت علاقاته مع محيطه الأقرب، فسيكون ذلك مصدر شقاء وعناء نفسي كبيرين.

ولو أمعنا النظر فسنجد أن هناك عنصرًا مهمًا يحكم علاقات الإنسان مع محيطه، هو لغة التخاطب مع من حوله، فلذلك دور أساس في تشكيل نوعية العلاقة بين المرء وبين المحيطين به، فإذا كانت لغة تخاطبه معهم سليمة فسينعكس ذلك على سلامة العلاقة معهم، أما إذا ساءت لغة التخاطب فمعنى ذلك إيجاد الأرضية لسوء العلاقة، لذلك يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[سورة الإسراء، الآية: ٥٣]، والخطاب هنا موجّه

للنبي الأكرم ﷺ ليبلغه إلى الناس، كل الناس، إذ لم تخصص الآية طرفًا معينًا، بل جاء الخطاب عامًا شاملًا، فكل الناس عباد الله، معطوفًا على القول ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يفسد علاقاتهم اتكاءً على سوء لغة التخاطب.

إن لغة تخاطب المرء مع محيطه مدعاة لكسب المودة. وقد وردت في هذا الصدد عدد من الروايات والأحاديث والآيات الشريفة، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من شئ أجلب لقلب الإنسان من لسان»[1]، لذلك كان لسان الإنسان باستمرار معيارًا لرجاحة عقله وسلامة فهمه. يقول عليه السلام: «كلام الرجل ميزان عقله»[2]، فإذا أردت أن تعرف مدى عقلانية إنسان فانظر إلى لغة تخاطبه، فكلامه السليم دليل تعقله واتزانه. وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إن هذا اللسان مفتاح كل خير وشر»[3].

واللافت أن اهتمام بعض الناس بحسن التخاطب مع البعيدين والأجانب عنه، يقابله استهانة بأسلوب خطابه مع القريبين منه، فتراه حينما يتحدث مع الأجانب يتخير الكلام المناسب، أما إذا أراد الحديث مع الأبناء والزوجة والخدم والأصدقاء، فإنه لا يعير هذا الأمر الاهتمام المناسب، وهذا خطأ كبير. إن على المرء أن ينتقي ألفاظه، ويحسن لغة التخاطب عنده، بدءًا من القريبين منه، وألّا يستهين بهذا الأمر.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٨٥، حكمة ٢٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٢، حكمة ٣١.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص١٧٨.

لماذا التساهل في مخاطبة القريبين؟

إن كثيرًا من الناس لا يهتمون بلغة التخاطب وحسنها مع القريبين منهم، وذلك لعدة أسباب:

أولًا: الأمن من ردّات الفعل. فإذا كان المتحدث يخاطب أجنبيًا فهو يخشى من ردّات الفعل، إن هو تلفظ بكلمة بذيئة، أو لفظة خشنة بحق الآخر. فيما تجد ذات الشخص غير حريص على تخير ألفاظه وحسن مخاطبته لزوجته، وأولاده أو العاملين في خدمته؛ لأنه لا يجد نفسه عرضة لأي ردات فعل، فيما لو تلفظ بحقهم على نحو غير مناسب، فهم جميعًا تحت إمرته وسلطته.

ثانيًا: توهّم المشروعية في الإساءة للأقربين. حيث تجد أحدهم يطلق العنان للسانه في التفوه بما لا يليق بحق أولاده وأسرته، انطلاقًا من حق الولاية عليهم كما يتوهم، وهذا فهم سقيم لأمر الولاية جملةً وتفصيلًا، فلا يصح مطلقًا إساءة استخدام الأب ولايته، بحيث تكون غطاء لسوء المعاملة والسب والشتم والاعتداء، فهل يظن أمثال هؤلاء أن الله تعالى لن يحاسبهم يوم القيامة؟. إن صلاحية أولياء الأمور معنية بالقيام بشؤون من يرعونهم، دون الإساءة والاعتداء والتسبب في الضرر، فالتربية والتعليم لها مقاييس ومعايير. وعطفًا على ذلك ينطبق الأمر ذاته على مسألة القيمومة على الزوجة، فمع التسليم بمبدأ القيمومة، إلا أن ذلك لا يعطي أحدًا الحق أن يؤذي زوجه، أو يتلفظ بحقها كيفما شاء، كما ينطبق الأمر ذاته على الزوجة نفسها، فلا يحق

لها التلفظ على زوجها بكلمات تنطوي على السب والشتم والاستنقاص.

ينبغي أن نضع بعين الاعتبار أن الله سبحانه وتعالى كما يحاسب المرء على كلامه الفاحش بحق الأجانب، سيحاسبه على ذلك مع القريبين. إن السلوكيات الخاطئة من قبيل السب والشتم ورفع الصوت في وجه العمال أو الخدم، كل ذلك مسجل علينا وسنحاسب عليه يوم القيامة، سيما وأن تلك الممارسة تجري باستغلال سلطتنا الذاتية من جهة وضعف الطرف الآخر من جهة أخرى، وذلك أشد وطئًا من التعدي على من يمتلك القدرة على الدفاع عن نفسه، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ظلم الضعيف أفحش الظلم»[1].

ويجري الأمر ذاته مع الأصدقاء، فلا ينبغي الفحش في القول معهم، فقد يعتقد البعض خطأ أن إطلاق الكلمات البذيئة أمر مستساغ بين الأصدقاء الخلص، والحقيقة أن مسلكًا من هذا القبيل يُعدّ خطأً كبيرًا، إذ ينبغي على الصديق أن يراعي حق صديقه، فكما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تضيعن حق أخيك اتكالًا على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من ضيعت حقه»[2]. ومقتضى ذلك أنه لا يصح بأيّ حال أن يجرح أحد مشاعر غيره اتكاءً على مسألة العلاقة معه، ويقول عليه السلام: «لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك وابق منها، فإن ذهاب الحشمة ذهاب الحياء،

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٣٢٣.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧١، ص١٦٥.

وبقاء الحشمة بقاء المودة»[1]. وزبدة القول هنا أن يتجنب المرء مزالق الإساءة للآخرين أيًا كان هؤلاء، حتى لا تتحول تلك الممارسة إلى عادة يسيء من خلالها للآخرين دون أن يشعر، فهو بذلك لن يكون معذورًا بأيّ حال.

ثالثًا: جهل البعض بأثر الكلام السيئ بحق القريبين منه، سواء كان زوجة أو ولدًا أم خادمة.

النتائج الوخيمة لسوء التخاطب

إن للكلام السيئ بحق القريبين آثارًا ونتائج وخيمة، منها:

أ. **الكلام السيئ سبب للأذى لمن هم حولنا**. ويشمل الضرر بصورة خاصة من هم تحت رعايتنا ومسؤوليتنا، إن من أوجب الواجبات هو أن يدفع المرء الأذى عن أبنائه وزوجته، فكيف به يصبح مصدرًا لما يؤذيهم؟ يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد: «ربّ كلام كلام»[2]، أي إن بعض الكلام سبب لجرح الآخرين. وحقيقة الأمر أن جرح الإنسان بالكلام البذيء أشدّ إيلامًا من الجرح بالسكين، ولا سيما جرح المقربين، يقول الامام علي عليه السلام: «ضرب اللسان أشد من ضرب السنان»[3]، فحذارِ أن تقول لزوجتك ولمن هم حولك كلامًا نابيًا يكون سببًا لأذيتهم.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص٢٥٣.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢١٥، حكمة ٧١.
(٣) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص٢٨٦.

ب. **الكلام السيئ منشأ للعقد النفسية لدى أفراد العائلة.** وعامل أساس في تكوّن عقدة الحقارة لدى الأفراد، وهو من العوامل التي تدفع كثيرين إلى التمرد، ولعلماء النفس كلام طويل في هذا الشأن. وقد صادفت ذات يوم شخصًا كانت مظاهر ضعف الشخصية بادية في تصرفاته، فقد كان يخاف من كل شيء، فقيل لي أن منشأ تلك الحالة لديه هي المعاملة المهينة والقسوة التي كان أبوه يعامله بها، فلم أتعجب من ذلك. وقد كتب أحد الأشخاص على صفحته في الفيسبوك أن إحدى قريباته كانت تردد وهي على فراش الموت وحتى الساعات الأخيرة من حياتها: أنها لا قيمة لها! فأثار كلامها تعجب من حولها، إذ كيف يصف شخص نفسه بأنه لا قيمة له، حتى زال العجب عندما عرف أنها كانت تردد الكلام الذي كان يواجهها به زوجها دائمًا، فقد كان يكرر على مسامعها باستمرار ويخاطبها بالقول: أنت لا قيمة لك ولا تساوين شيئًا.

وقد استفزني قبل فترة اتصال من إحدى الزوجات، فقد كانت تشتكي وهي باكية من أن زوجها دائمًا ما يقول لها أنك لا تستحقين أن تكوني لي زوجة، لقد تزوجتك بالخطأ!، فهل هذا كلام يقال لزوجة؟ ومن تظن نفسك حتى تقول هذا؟ حتى لو كان أحدهم يعتقد مثل ذلك، فليبق هذا في نفسه لا أن يجرح به مشاعر زوجته، ويطعنها بسهامه المريرة. إن على المرء أن يتجنب الكلام البذيء؛ لأن آثاره وخيمة، وقد ورد عن الإمام

علي عليه السلام القول: «إياك ومستهجن الكلام فإنه يوغر القلب»[1].

ج. **الكلام السيئ قابل للعدوى.** فكما يكون الآخرون عرضة للإصابة بالأمراض المعدية، فهم كذلك عرضة للتطبع بالسلوك الخطأ، ومنها التلفظ بالكلمات المسيئة، عندها لن يكون المتلفظ بالإساءة بمنأى عن سهامها المرتدة من قبل بعض المقربين منه أنفسهم.

د. **الكلام السيئ سبب للإثم وغضب الله تعالى.** فلا ينبغي أن يتساهل المرء بالكلام البذيء الجارح حتى مع القريبين منه، حتى ولو كان ضمن إطار الممازحة. روى عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «ألا هل عسى رجل منكم أن يتكلم بالكلمة يضحك بها القوم فيسقط بها أبعد من السماء؟! ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها أصحابه فيسخط الله بها عليه لا يرضى عنه حتى يدخله النار»[2].

لذلك ينبغي للإنسان أن يحسب حسابًا لكلامه وخاصة مع القريبين منه.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٩٦، حكمة ٨٨.

(٢) عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب، ج٣، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٥٣٨، حديث ٤٩.